مصـــر التـــى

أســـامة علي الصادق

مصر التى / رواية

أسامة علي الصادق

الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي:

أحمد منتصر

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٣٢٤٢

I.S.D.N: ٩٧٧-١٧- ٠-٥٨٣٣

مصر التي

رواية

أسامة علي الصادق

الطبعة الثالثة

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلـــى

مصر وطنـــاً

مصر التى فى خاطرى وفى فمى

أحـــبها من كل روحى ودمـــى

يا ليت كل مؤمن يعزها يُحبـــها

مثلـــــــــــى أنا

قصيدة صوت الوطن للشاعر/

أحمـــد رامى



إلى

مصر شعبًا

جئـــــــت لا لأعلم من أين

ولكنى أبصرت للدنيا طريقا فمـــشيت

وسأبقى سائرا إن شئت هـــذا أم أبيت

جئت .. كيف أبصـــــــرت طريقـــى .. لســـت أدرى

الشاعر/ إيليا أبو ماضى



قرية بالريف المصرى

عام ١٩٥٠ وبإحدى قرى محافظة الدقهلية وهى قرية أبـــو سيف والتى تجاور مدينة المنصورة عاصمة المحافظة وتقع علـــى الجانب الآخر من نهر النيل الرائع الـــذى يقـــسم المحافظـــة الى قسمين. يعيش بتلك القرية الآلاف من الفلاحين البسطاء الذين يسعون على لقمة العيش لهم ولذويهم الذين يمثلون عـــائلات كثيرة العدد وأمام منزل ريفى متواضع أقيم من الطوب اللـــبن والمكون من دور واحد تعلوه كميات من الحطـــب الجـــاف وبعض قش الأرز لزوم الطهى وإعداد الخبز على الكانون المزود به كل بيت من بيوت الفلاحين.

فهذا عنصر هام للإعاشة. تقطن بهذا البيت المتواضع أسرة "عـــــوف" وهو رجل بسيط الحال يبلغ من العمـــر أربعـــين عاما ومتزوج من ابنة عمه "سنـــية" والتى تقاربـــه فى العمـــر الزمنى لكن هناك فارقا كبيرا بينهما رغم أنهما أبنـــاء عمومـــة ومتزوجان منذ أكثر من ثمانية عشر عاما ، عوف نحيف القوام هادىء الطباع يداوم على الصلاة محبوبا من جميع أبناء القريـــة ولا يتحدث كثيرا رغم أنه ضاحك ومبتسم دائما ولهذا السبب لم تحدث بينه وبين أهل قريته أى مشاكل والتى تنتج عادة مـــن أخطاء اللسان بين الناس.

لا يعمل بالزراعة إلا مضطرا لكن عمله الأساســـى تجـــارة الخضروات حيث يمتلك عربة كـــارو صـــغيرة ذات عجلـــتين

وحمارا يستخدمهما لهذا الغرض. يشترى الخضروات من منتجيها خاصة نبات "الخس" ويقوم بإعداده وتنظيفه من بقايا الحقل ويزيل منه الشوائب والطين العالق به بعد استخراجه منه ويحمله على عربته متجها به كل صباح إلى مدينة المنصورة عابرا الكوبرى الواصل بينهما ويسمى بكوبرى "طلخا" وقد تمرس الرجل على هذا العمل وهو شاب يافع فى مقتبل حياته واختار الأماكن الراقية ليعلن عن بضاعته حتى يتجنب الأحياء الشعبية والفصال فى ثمن ما يعرضه. ونظرا لحسن بضاعته وطزاجة ما يحمله ونظافته أصبح هدفا لسكان تلك الأحياء كما كان يضفى تسامحه مع البعض ممن يتحدثون معه بأسلوب يغلفه الاستهتار وبعيد كل البعد عن الاحترام سواء من الخدم أو من بوابى تلك العمارات فأدى سلوكه هذا إلى نوع من الألفة والحب بينهم لهذا أقبل عليه الجميع يطلبون بضاعته وإذا تغيب لأى سبب عن الحضور يمتنع زبائنه عن الشراء من أى بديل له لأنهم وثقوا به بعد تجارب مع غيره سواء بسبب غشهم وخداعهم أو سوء الحديث معهم ، لهذا السبب كان "عوف" يعود مجبور الخاطر آخر النهار بما مَنّ الله عليه من خير ورزق حاملا معه بقايا أوراق الخس التالفة أو الجافة التى يقوم بنزعها قبل تسليمها إلى المشترى فيصبح طعاما لبعض حيواناته المنزلية من الماعز والأغنام التى تقوم زوجته بتربيتها فى منزلهم للمساعدة على توفير الرزق لأسرتها كما كان يبتاع

بعض بقايا الخبز الجاف الرديئة الصنع من بعض التجار بأرخص الأثمان ليطعم بها طيوره التى تقوم زوجته بتربيتها أيضا.

أما عن زوجته "سَنـــــية" فهى على النقيض منــه. فقــد حباها الله بجمال طبيعي. طويلة القامة ممشوقة الجــسد بيــضاء اللون وذات شعر أسود فاحم مسترسل على كتفيها وأســنانها بيضاء لامعة وعيونها سوداء واسعة ولأول وهلة إذا نظرت إليها شعرت بأنك أمام حورية من حور الجنة هبطت على الأرض.

عندما تتحدث تسمع من بين شفتيها صوتا رقيقا به مسحة من ضحكة صغيرة غير مكتملة وهذه المواصــفات تظهــر فى اللحظات القليلة التى تكون فيها هادئة حليمة الخلــق أمــا إذا توترت وهذا يحدث كثيرا فإنك تشاهد عكس ما سبق ذكــره فتسمع الصوت المرتفع وتهاجم الشخص الذى أمامها بــسبب وبدون سبب والكثير منه بدون سبب وأصبح النــاس خاصــة النسوة يبتعدن عنها خوفا من لسانها الحاد شــديد القــسوة فى التعبير كما أنها لا تخجل أن تسب جاراتها بأقذع الشتائم الــتى تمس العرض والشرف وكان هذا يدفع بالنــساء إلى الهــرب لمساكنهن لتحاشى لسانها الفلتان المهين.

أما الرجال فلم يعيرونها أى اهتمام ويحدث فى بعض الأحيان أن تسب رجلا بدون سبب ويزداد حنقها عليه فتمسكه مــن تلابيب جلبابه وتتشاجر معه والرجل واقف لا حول له ولا قوة لأنه إذا فعل مثلها فهذا معناه أنه تعدى عليها وتطــاول علــى

جسدها ولمسها فى أماكن حساسة تعرضه للمساءلة القانونية ولكن الأهم من هذا كله أنها ستكون قد نشبت أظافرها بوجهه ولحمه ولن تتركه إلا مشوها وبصوتها القوى يتجمع الناس حوله وفى نهاية المعركة يلومونه بأنه تعدى على "حُرمة" وما كان يجب عليه فعل هذا وكان يجب انتظار زوجها ليشكوها إليه .. والبعض يضحك من هذا قائلين بأن عوف يحتاج عون الناس لحمايته منها ومن أفعالها. الأمور تسير بالزوجين على نظام ومنهج مفهوم دون كتابة أو شهود فالصوت المرتفع والأمر والنهى للزوجة والتى يخشاها الجميع حتى زوجها عوف خفيض الصوت والذى يقابل بذاءتها بالصبر والهدوء والرصانة والابتسام وكأنها لم تحادثه أو تسُبه أو تهينه أمام الناس أو أمام أبنائه وكان معروفا عنه لدى الجميع بأنه يعاملها فى مثل تلك الظروف بشىء آخر وهو الهجر بالابتعاد عن المترل عدة أيام تاركا لها المترل تفعل به ما تشاء ولهذا أصبحت غريبة بين أهلها وبلدتها لسوء أخلاقها فى التعامل مع الآخرين حتى أشقاءها كانوا يبتعدون عنها وكان السبب فى كل هذا السلوك هو والدها وهو الشقيق الأصغر لوالد عوف حيث دأب منذ صغرها على تدليلها ومعاملتها معاملة خاصة لما تتمتع به من جمال أخاذ وقد دفعها هذا إلى الغرور حتى على أشقائها الرجال وهم أكبر منها سنا وأن تلحق بهم الإهانة وترفع صوتها عليهم.

رزق الزوجان طول سنين عشرتهما الزوجية والتى دامت ثمانية عشر عاما بولد وثلاث فتيات وكان التبكير بالولد ثم تلاه الثلاث فتيات. سنية حامل فى شهرها السادس تنتظر مولودها الخامس وما زالت عفية قوية تزداد جمالا وروعة وبهاء ومازال لسانها قبيح الكلمة كريه المعنى وأصبحت منبوذة من أهل القرية لا يتعامل معها أحد ولهذا كانت تحمل منتجاتها من بيض ودواجن وبط وإوز وحمام وأرانب إلى سوق المدينة وتجلس صاغرة لا تستطيع فتح فمها لأنها خارج بلدتها ولن تستطيع أن تقف فى وجه النسوة فى السوق وإلا سيلقنّها درسا لن تنساه كما ستحضر شرطة المرافق وتحملها للقسم. ومن أجل هذا وبمعاونة زوجها استطاع أن يجد لها مكانا فى السوق بين نسائه وهن يعلمن أنها زوجة لهذا الرجل الطيب والذى يعاون بعضهن فى كثير من الأحيان بنقل بضاعتهن وحملهن أيضا بواسطة عربته الكارو خاصة أيام فصل الشتاء والأوحال التى تملأ الطرق.

وكل هذا بدون أجر وقد دفعهن هذا إلى حبه ومحاولة إرضائه بكل الطرق سدادا لمعروفه وخدماته لهن .

الابن الأكبر يُدعى "حامد" ويبلغ من العمر سبعة عشر عاما ويعمل فى الحقول كعامل زراعى وهو مخالف لأمه فى كثير من طباعها باستثناء وسامته التى ورثها عنها أما باقى أخواته فهن على التوالى ..

عـــزيزة (ثلاثة عشر عاما) .. زينب (عشرة أعوام).. منيرة (سبعة أعوام).. توقفت الأم عن الإنجاب سواء للراحة الطبيعية أو من حالات "السقط" فى الحمل التى تحدث لـــبعض النـــساء وخاصة لقيامهن بالأعمال العنيفة التى يقمـــن بهـــا فى بعـــض الأحيان وقلة الوعى الصحى لديهن.

عاد عوف من مشواره اليومى ليجد زوجتـــه تعـــانى آلام المخاض وقد حضرت لهذا الغرض شقيقتها الصغرى وبرفقتـــها أم زكى الداية وتمت عملية الوضع بعد أن نالهن الكـــثير مـــن لسانها وهى تضع طفلها الخامس.

وصلت بشرى المولود إلى عوف. إنها أنثى وأسعده هذا فهو بطبعه الهادىء المتدين لا يهتم بالمقارنة بين فتى وفتـــاة علـــى عكس عادة بعض الناس بريف مصر فى ذلك الزمان بل وحتى الآن فكلما زاد الجهل والتخلف تمسكنا بمثـــل تلـــك البـــدع والخرافات. زوجته هى الأخرى لم تكن تهتم بتلك الخرافة وقد يكون هذا نابعا من شعورها بالتفوق والقوة.

فى اليوم السابع أى "السبوع" والجميع يحتفل بهذه المناســـبة والأم تجلس كالبدر المنير وتحمل طفلتها. طلب منـــها الـــبعض على استحياء أن تسمى الفتاة ولكنها رفضت وقالت أنا جبتها وأبوها عليه يسميها وقد أسعده هذا وهو ينظر إلى ابنته قـــائلا للمدعوين: أنا شاعر إن البنت دى حتكون جدم سعد علينـــا وعلى نفسها ، حيكون لها مستجبل ربنا منور الطريج جدامى

وحاجة فى دماغى بتحول يا عوف بنتـــك دى حتكـــون لهـــا مستجبل وحظ ، علشان كده حتكـــون مـــسعدة وســـعيدة وحسميها "ســـــــــعاد". دارت الأيام بالأسرة .. الكل يعمل والفتيات يخرجن للحقول للعمل فى نقاوة دودة ورق القطن أو جمع محصوله وتوزيع السماد البلدى "السباخ" ونظافـــة الأرض من الحشائش الضارة لم يكن هناك عمل ما إلا وقمن بـــه ولم تكن هناك مشاكل أثناء قيامهن بالعمل ســـوى حـــضور الأم للإشراف علـــيهن ومتابعتهن ويكون صاحب العمـــل حظـــه أسود من قرون الخروب لو تهاون فى إعطاء أى من بناتها حقها أو تعدى على إحداهن بالسب أو الضرب فهذا معنـــاه أنهـــا سوف "تجرسه" وهى كلمة تعنى فى الريف الفـــضيحة العامـــة والتى سوف تهين كرامته ولهذا لم يكن النـــاس يفتعلـــون أى مشاكل مع بناتها وخاصة أنهن كن مثل والـــدهن عـــوف فى الصمت المطبق والعمل بإخلاص وقد يكون الدافع لهذا قـــانون الوراثة أو أن أمهن لم تعطهن فرصة للحديث فهى دائما ترغى وتزبد حتى أثناء تناول طعامها وفى بعض الحالات وهى فى بيت الراحة "دورة المياه" تتكلم ثائرة حانقة على أســـرتها وعلـــى الجيران وتسبهم فردا فردا واصفة إياهم بأبشع الكلمات وقـــد يكون الدافع أيضا لصمت الفتيات ما لاحظنه من أن سياســـة الأم أبعدت الناس عنهن وفى كثير من المواقف كان الناس غـــير راغبين فى استئجار الفتيات بسبب سوء خلق الأم. كل تلـــك

الأمور دفعت الفتيات إلى احترام الآخرين والاحتراز من تتبع خطوات الأم التي ثبت فشلها وعقمها بأن ابتعد الجميع عنهن.

واجهت عوف وزوجته مشكلة فى زواج ابنتهم عزيزة رغم أنها تنعم بمسحة من الجمال إلا أن الشباب عزف عن التقدم إليها وكان مبعثه هو الخوف من نسب أمها سنية فكل أم نالت منها بعض الكلمات القاسية فى الأعوام السابقة سواء مباشرة منها أو نقلا عن أخريات وخاصة فى أماكن تجمع نساء القرية عند ماكينة طحن الغلال والتي يطلقون عليها "وابور الطحين" والتي تتجه النساء إليها لطحن حبوب القمح والذرة لإعداد خبزهن.

كانت سنية لا تعتد بنظام الدور بل تدخل مباشرة لطحن دقيقها دون اكتراث بأن الدور القادم على سيدة اخرى. وإذا بدرت بادرة من أى واحدة منهن باعتراض طفيف فى صورة رجاء بأنها تاركة ابنتها الرضيعة عند الجيران وتريد العودة مبكرا حتى ترضعها فسوف تتلقى نصيبها من السباب وقد تندفع للهجوم عليها ممزقة ثيابها وضربها وتعود تلك السيدة إلى منزلها وآثار المعركة بادية عليها باكية سوء حظها العاثر. فى إحدى تلك المرات قامت بعد معركتها مع احدى ضحاياها ببعثرة حبوب القمح على الأرض بين صراخ النسوة مما دفع صاحب ماكينة الطحين للتدخل ونهرها عما تفعله وكان نصيبه البهدلة و"خرشمة" وجهه وإهانته فأمر عماله بطردها من المبنى. غادرته وهى تلعنهم جميعا ووقفت أمام مبنى الماكينة تكيل لهم السباب

واللعنات مانعة أى سيدة من الاقتراب من الماكينة وظلت على هذا الحال عدة أيام قامت خلالها بحصار الماكينة حتى رضخ الرجل وقام مع بعض الأعيان بزيارتها فى منزلها مقدما اعتذاره عما بدر منه وأنها منذ هذا اليوم لها الأسبقية الأولى فى طحن دقيقها مجانا بل اقترح أحد وجهاء القرية بأن يرسل بأحد عماله لأخذ الحبوب وطحنها وإعادتها إليها مرة ثانية.استطاع عوف بعلاقته بالبعض فى مدينة المنصورة أن يجد الزوج المناسب لابنته عزيزة. هو شاب يتيم ويعمل مع أحد تجار الخضار بالجملة فى سوق المدينة الكبير وقد ارتضاه عوف رغم فقره لأنه كان مهذبا وعلى علاقة دائمة بربه ويؤدى الصلاة فى وقتها وهذه هى طباع عوف أيضا ولهذا سعد بهذا الشاب طالبا من زوجته عدم التحدث أو التكلم معه وكل ما تقوم به هو الترحيب به ثم الابتعاد عنه واقتنعت بحديثه خاصة أنها بدأت تشعر بنتيجة تصرفاتها وهى تنظر لابنتيها وهما على مشارف الزواج ورغم ما يميزهن من جمال فلم يتقدم أحد إليهن واقترن الخُطّاب بأخريات من البلدة وهن فى طريقهن للإنجاب. ولكن كما يقول المثل لكل داء دواء إلا الحماقة فلا دواء لها.

سُعاد بالمدينة

مدينة المنصورة الجميلة عام ١٩٥٨ ومازال عوف يمر على الأحياء الراقية مناديا على بضاعته"الخس اللوز" فيسرع إليه البوابون والخدم لإحضار ما طلبه أهل المترل. أمام فيلا مدير بنك باركليز أسرع إليه البواب ملقيا عليه السلام طالبا منه الحضور إلى داخل الفيلا لمقابلة الهانم فى أمر هام وقد تخوف عوف من هذا اللقاء متسائلا:

-خير ياعم "نوبى" الست الخواجاية عايزانى فى إيه؟ أجابه بأنه لا يعلم أى شيء وأن كل ما أخبرته به فى الصباح عندما يحضر بائع الخس أن يطلبه للقائها. ركن عربته بأحد أجناب الفيلا موصيا عليها عم نوبى البواب ودلف إلى داخلها مهندما ثيابه الرثة وهو يدعو الله أن يكون الأمر خيرا فهو يعلم أن تلك السيدة جادة وأنها لا تثير المشاكل بل أنها تشترك فى عدة جمعيات لعمل الخير لصالح الفقراء والمحتاجين. ومن المحتمل أن تكون بضاعته رديئة وهى تريد تهديده ووعيده بألا يحضر لتلك المنطقة مرة ثانية.

أسعفه عم نوبى بأن سار أمامه ضاغطا على جرس الفيلا من الداخل حيث قام الطاهى بفتح الباب ووجد السيدة تقف أمامه فى مدخل الباب وهى فارعة الطول نحيفة القوام ترتدى ملابس

الخروج كعادة الأجانب من ارتدائهم ملابسهم بعـد مغـادرة السرير كأنهم على موعد.

أدركت السيدة حالة الإرتباك التي شاهدتها علـى وجـه الرجل وهى التي تعرفه منذ عدة أعوام فقد شاهدته كثيرا سواء من شرفة الفيلا أو أثناء عودتها من رياضتها المفضلة بالسير على كورنيش المدينة للتريض. رحبت بـه لإزالـة أى خـوف أو اضطراب بداخله. تحدثت:

-"أهلا عم عوف". رحب بها الرجل بالابتسامة والإشـارة وتحريك يده على صدره.

-نعمين يا ست هانم. عم نوبى عرفنى إن حضرتك عايزانى. أشارت إليه بالتمهل طالبة منه الجلوس.

جلست بينما عوف افترش الأرض جالسا ولكنها طالبتـه بالجلوس على الأريكة التي جلست عليها.

امتنع احتراما لها وللمكان ولكنها صممت على رأيها فنفذه بجلسة خفيفة على طرف المقعد الوثير متخوفا أن تنتقل أوساخ جلبابه المتهالك إلى المقعد. أشارت إلى الطاهى بـأن يحـضر مشروبا له. ذهب بدون سؤاله عن المشروب الذى يرغبه فهـو يعلم أنه لابد من شرب الشاى ثقيل اللون وسكر زيادة. فهذه عوائد أهل الريف والصعيد.

جلست السيدة فى مواجهة الرجل الذى كان ينظـر إلى السجادة بأرضية الأنتريه كسيرا خائفا وقد أشارت إلى عم نوبى

بالتوجه إلى عمله خارج الفيلا. تحدثت بصوت واضح متوسط النبرة ضاغطة على أحرف كلماتها العربية.

-عوف. نظر إليها كسيرا.

-نعمين يا ست هانم.

-شوف عوف. أنا عايز بنت صغيرة حلو تيجى تعيش معايا أنا ومسيو "دوفان" فى الفيلا .. وتتكلم معايا سوا سوا .. ابني مكسيم بيدرس فى الوطن فرنسا ومفيش حد يكلم معايـا .. وطولة النهار أعيش لوحدى ومفيش غير "بربارة" تعيش معايـا .. بربارة مش بتتكلم .. ولكن أنا عايز حد يكلم معايا ..

نظر إليها رافعا يده للسماء بالدعاء.

-ربنا يشفى الست بربارة وياخد بيدها وتتحدت معاكى. يمكن عندها تعب فى زورها. عايزه تشرب ورج جوافه مغلى. مفيد والله يا هانم. قاطعته ضاحكة:

-"بربارة" دى اسم واحد كلب مش إنسان فاهم عوف؟

-حاضر يا هانم .. حاضر .. صمت.

-عايز بنت صغيرة .. مش بيبى لكن عمره سبعة سنة تمانيه سنة ويكون نديف عوف مش أحبو كذارة فاهم عوف.

-حاضر يا ست هانم .. تكمل حديثها:

-أنا ناولتو لها كل آخر شهر اتنين جنيه. كويس عوف؟

-دا حلو خالص يا ست ، ربنا يعمـــر بيتـــك ، حاضـــر حشوف طلبك. حضر الطاهي بالشاى وقدمه إلى عوف.

-اتفضل يا عم عوف.

-ربنا يسلم إديك يا خويا. وبعد أن أنهى شـــرب كـــوب الشاى -متشكرين يا ست هانم.

استوضحت منه عما تريده فأعادت بعض فقرات حـــديثها السابق حتى لا ينساه. عايز يكون بنت كويس وبـــيفهم ولـــه "مخ" نديف ، فاهم؟

-حاضر يا ست جين.

انتهى اللقاء وودعها خارجا بعد أن وعدها بأنه فى خـــلال أيام قليلة سوف يبحث لها عن طلبها المنشود.

*****

بعد ظهر هذا اليوم جلس عوف مع زوجتـــه وهـــى هامدة أمامه بعد أن انتهت من وصلتي ردح لـــبعض جيرانهـــا وأخبرها بلقاء الست الخوجاية وما طلبته منه وطلب منها العون متسائلا:

-تفتكرى البت كوثر بنت إبراهيم أبو السيد تنفع يا ســـنية يا مرتى؟ نظرت إليه بضيق:

-بنت ابراهيم أبو السيد مش حتشرف يا عـــوف. البـــت راسها بتشغى جمل زى أمها. عيلة معفنة ومجملـــين ، حـــت

ضربة فى روسهم. يعيد ترشيح فتاة أخرى وتعيد حديثها السابق لاعنة تلك العائلة وأمها اللى جتتها ما شفت الميه من جلة الحموم.

-غُلب حمارى يا سنية ، وبعدين أجول إيه للولية الخواجية؟ ، بكرة حتسألنى ومش حتبطل سؤلات وأنا مش عارف أجولها إيه؟ تجيبه:

-يا راجل يا أعمى ، ما بنتك سعاد موجودة أهه ، جدامك ، رايح تدور على بنات الناس وسايب بنتك ، ملهاش شغلة غير الجرى فى الحارة واللعب مع العيال فى الجرن وعند النخل وحدا الترعة. بدل ما هى بتلف فى البلد والناس بتتمجلت عليها وأروح أتغاوش مع النسواين خدها نخلص من بلاويها واتنين جنيه حلوين. متسائلا: والدموع تكاد أن تخرج من مقلتيها.

-تهون عليكى سعاد ، دى آخر العنجود. تشيح بيدها فى وجهه.

-عنجود إيه وسباطة إيه؟ ، كل أخواتها بيشتغلوا وبيساعدوا فى المعايش. خدها خليها تنضف من التراب والدبان اللى مبهدلها وغطى على حلاوتها.

-بس إنتى عارفه إن البت دى غالية عندى جد إيه ، مش حأجدر على بعدها. تعيد حديثها بقوة:

-شوف يا بن الناس ، متعملش معاها زى ما أبويا عمـــل معايا وفضل يدلع فيا لحد ما بجيت أشتم إخواتى وهو مبسوط منى ودلوجتى إنت شايف حالتى عاملـــه إزاى وكـــل النـــاس كرهانى على طولة لسانى وأنا أتعودت على كده وبعدين إنت كل يوم بتروح عند دارهم وحتشوفها وحتترل تشترى منـــك الخس.ابجى جعدها على حجرك شوية زى ما بتعمـــل هنـــا. صمت قليلا ثم نظر إليها قائلا:

-يعنى إنتى شايفة كده؟

-أيوه ، السن مناسب والبنت حلوة وتفتح النفس ونضيفة وحجوم أحميها وأنضفها من الجمل اللى بيرعى فى شعرها مـــن لعبها مع بنات الحتة. نهضت وهى تنادى على ابنتها قائلة:

-تعالى يا بت. أسرعت الطفلة لتلبية نداء أمها خوفا من أن تبطش بها وتفرج عليها الجيران مثل ما يحدث لأى فـــرد مـــن العائلة يخالفها الرأى أو يعصى لها أمرا أو نداء.

-حاضر يا مه.

حضرت الطفلة مسرعة فصعدت بها إلى سطح الدار حاملة زجاجة الجاز "كيروسين" وعلبة صغيرة وفلاية "مشط خشبى". تضع قليلا من الجاز فى العلبة وتبلل المشط وتقوم بفرد شـــعرها الطويل بين صرخاتها من قسوة آلام فرد الشعر والأم صـــائحة فيها قائلة:

-بنضفك يا محملة يا بنت المحمل. بالأسفل سمع عوف شتيمته وشتيمة ابنته ضاحكا فقد تعود على هذا وأصبحت تلك الشتائم تخرج من فم زوجته مثل التنفس.

بعد جهد جهيد استطاعت الأم فرد شعر سعاد بفتحة المشط الواسعة وغيرت الجهة الأخرى من المشط وهى الضيقة لتخرج ما يرعى فى شعر الصغيرة من حشرة القمل والتى كانت دائما ما تدفعها إلى هرش رأسها سواء أثناء اللعب أو النوم بل وأثناء الطعام. اصطحبتها بعد ذلك إلى زريبة مفتوحة السقف وغير مسقفة وهو المكان الذى تعيش بها الأغنام والماعز وطيورها التى ترعاها وأعدت الماء الساخن وبليفة خشنة نظفت جسد الصغيرة بين صرخاتها وبكائها وغيرت ملابسها بأخرى نظيفة. أخيرا أصبحت الصغيرة نظيفة وهى لا تعلم إلى أين؟ وما قد خططه لها والداها فقد أصبحت مثل الماعز التى عندهم عندما يسحبونها ويذهبون بها إلى السوق لبيعها عائدين بدونها بعد تركها للتاجر مقابل بعض النقود التى تعينهم على العيش فى هذا المستوى المنخفض ماديا واجتماعيا.

فى الصباح اصطحبها والدها معه إلى البندر وهى سعيدة بأنها سترافق هذا الأب العطوف الحبيب الذى لا يفتأ عن تزويدها بقبلاته الحانية وهى تحمل معها "بوقجة" ملابسها وهى البديل عن الشنطة. الطفلة سعيدة بأنها ستشاهد البندر وشوارعه الفسيحة الجميلة ومبانيها المرتفعة العالية وتنظر إلى كل شىء تشاهده بسعادة والأب الملتاع يعد الدقائق والثوانى

طالبا من الله أن ترفضها الخوجاية ليعود بها إلى بلدته ثانية مؤنبا نفسه على السير وراء شطحات زوجته والتى لا تعرف كيـــف تحدث الآخرين حتى ابنتها الصغرى ضحت بها. اندفعت دموعه من حين لآخر وهو ينظر إليها من تحت تلافيف جلبابه بجففـــا دموعه المنهمرة ، ولشعوره بأنها ستفارقه بعد عدة دقائق أغدق عليها من عطفه بشراء حلوى وكل ما تهفو إليه نفسها وهـــى سعيدة فرحة وتعطيه المكافـــأة الــسخية بقبلاتهـــا الــصغيرة فيتحســـس وجهها الناعم وتزداد الأمور تعقيدا علـــى نفـــسه عندما يسأله البعض عن تلك الطفلة الجميلة فيجيبهم بفخر أنها ابنته. أشاد بها كل من شاهدها وأحدهم صارحه قائلا:

-يا راجل حرام عليك تبهدل بنتك الحلوة دية فوج عربيتك ، خليها فى دارك أحسن ، دى لسه صغيرة ومش حمل المرمطة.

ازدادت هواجس الرجل فقد شـــعر بأنـــه أخطـــأ الـــرأى والنصيحة قائلا فى نفسه. كنت انخرست ومعرفتش مرتى بكل اللى حُصل ، فكر بأن يعود بها إلى بلدته معتذرا للخوجاية عن تلك المهمة ولكنه وجد نفسه أمام باب الفيلا وعم نوبى منتظره وسعيد بأن شاهد الطفلة برفقته قائلا:

-زين ما اخترت يا عم عوف ، دا الست هـــانم حتفـــرح خالص. دخل نوبى فأخبر السيدة بحضور عوف وبرفقته الطفلة. طلبت منه أن يدخلهما. أمسك عوف بيد ابنته الصغيرة وهـــى

تسير بجواره مطمئنة وممسكا ب-"بوقجة" ملابسها. نظـــرت إليها السيدة بابتسامة كبيرة قائلة:

-هايل كتير عوف ، إنت مكار كتير ، جبتوا حـــلاوة دى منين؟

أشارت إلى الطفلة بيدها قائلة:

-تعالى هنا بنت جميل. إنت بيى هايل. دفعها الرجـــل إلى السيدة قائلا :

-"حبى على إيد الست" أى قبلى يـــدها ولكـــن الـــسيدة رفضت وانحنت تحتضنها والطفلة ببراءتها وشجاعتها بأن والدها معها لا تهاب تلك المواقف. طلبت من الطاهى الحضور وتسلم ملابس الفتاة. ثم سألت عوف:

-بنت ناس كويين عوف؟ أجابها وعيونه دامعة. أيوه يـــا ست هانم ، دى بنتى الصغيرة. دهشت:

-كويس كتير عوف ، عندك تفل كويس كتير ، اسمكِ إيه حبيبة قلبى؟

-سعاد .

-هايل سعاد. وجهت حديثها إلى عوف.

-عوف ، سوف أول كل سهر تيجوا تاخد منى فلـــوس ، اتنين جنيه. كويس عوف؟

-اللى تأمري بيه يا ست هانم ، كلتنا خدامينك.

-لالالا مش عايز أسمع كلام زى كده. وده مش كويس عوف ، ما فيس حاجه اسمه هدام ، فاهم عوف؟

-فاهم يا ست هانم. تحرك عوف مغادرا الفيلا قائلا:

-خليكى يا سعاد هنا مع الست هانم وأنا حروح أشوف مشاغلى بس اوعى تكسرى حاجه واسمعي الكلام ، مبسوطة؟

دهشت الطفلة. فقد تركها الأب الحنون فى هذا المكان للمرة الأولى بمفردها فبكت متوسلة له بأن لا يتركها وتركت المكان المجاور للسيدة وهى كارهة له تريد اللحاق بوالدها وهو يعيدها باكيا وقد انقلب الحال إلى مأساة وهنا طلبت السيدة من الطاهى بالحضور قائلة:

-عبده. أسرع بالحضور.

-نعمين يا ست هانم. أشارت إليه.

-خد واحد تفل إلى الداخل واطلب من زوجة تنظيفه ، فاهم عبده؟ أجابها:

-فاهم يا ست هانم.

حملها عبده وهى صارخة باكية وهنا تحرك عوف خارجا لا يرى طريقه والدموع ملأت عينيه واستند على الحائط حتى وصل إلى الباب الخارجى. هون عليه عم نوبى قائلا:

-يا راجل بتبكى عليها ، زى ما تكون بنتك؟ نظر إليه:

-ماهى بنتى الصغيرة. اندهش الرجل ثم ربت على كتفه.

-ربنا راضى عنك وعنها ، الست هانم حتغيرها وحتخليها بنت ناس وذوات مش زى حالتنا ، يومين زعل لكنك حتكون مبسوط لما تشوفها عايشة كويس. تركه وهو ينـــادى علـــى بضاعته .. الخس اللوز ..

صوته لا يخرج أبعد من طول العربة الكارو التي تسير بجواره والحمار ينظر إليه وهو ينظر إلى حماره متسائلا:

وإنت زعلان؟ فهز الحمار رأسه محدثا صوتا "نفرة" الحمار.

- أنا عارف إني غلطت لكن إللى وجع يتصلح.

عاد الرجل إلى منزله آخر النهار مهموما وقد غلفه شـــعور بأنه وارى أحب أبنائه إلى قلبه التراب. انفرد بنفسه باكيا بـــألم فى حجرته وامرأته أمامه تواسيه وتخبره قائلة: كل الناس كـــده حتى أنا لما اجوزت فاكر أبويا عـــيط إزاى؟ جفـــف دموعـــه وأخبرها قائلا :

-والله ما حصل ، أنا عرفت إن عمى دبح غنمتين علـــشان خلص منك. فتحت فمها وصوتها ليخرج بأقذع الشتائم لـــه ولعائلته وهى تشبهه تارة بأبو فصادة ومرة بالجحش الـــزرايبى ولم تتركه إلا بعد أن تركها مغادرا منزله هائمـــا فى شـــوارع القرية الضيقة بعد ما حدث اليوم لابنته سعاد.

قابله إبراهيم أبو نبوت وهو خفير نظامى فألقى عليه التحية فلم يجبه. استوقفه قائلا:

-مالك يا واد يا عوف؟ ماشى تايه زى كف الله الشر اللى مات له عيل. بكى وأخبره:

-فعلا مات لى عيل النهارده. انزعج الصديق. لا حول ولا قوة إلا بالله. مين يا وله؟

-بنتى سعاد. صفق الرجل يدا بيد قائلا:

-لا حول الله. لكن محدش عرف فى البلد. وإزاى الحكايــة دية حُصلت؟ يعنى غرقت فى التُرعة ولا طرمبيل داسها؟

-أبدا كانت معاى فى البندر!!! مازال الرجل مندهشا: ..

-لا حول ولا قوة إلا بالله .. أقبل بعض الفلاحين فأخبرهم إبراهيم أبو نبوت بوفاة ابنة عوف اليوم فى البندر. تجمع الرجال يواسونه وأقبلت إحدى النساء على تجمعهم فعلمــت بــالخبر فأطلقت عدة جهرخات أعقبتها صرخات النسوة من دورهــن دون أن يعلمن السبب. فى دقائق انقلب حال البلد من حال إلى حال وحضر الفقى فخلع نعليه وجلس أرضا ليقرأ ربعا علــى روح المرحومة وقد ضمن عشاء أسرته لتلك الليلة كما حــضر الحنوتى للقيام بواجبه كما تجمعت صديقات ســعاد باكيــات وبعض النسوة ذهبن إلى دارها لتعزية الأم رغم خــوفهن مــن طول لسانها.

فوجئت الأم بجمهرة العديد من النساء وعلمــت بــالخبر والسبب فى ذلك هو زوجها الذى تــرك ابنتــه فى الــشارع بالمنصورة وقد لطشها طرومبيل وماتت على الفــور والــبعض

يتساءل عن الجثة والبعض يتطوع ليخبرهم بأنها بالمشرحة الآن ومازال أهل البلدة مجتمعين حول عوف كما حضرت أختها المتزوجة وبكت شقيقتها الصغرى ونفر من القرية عدد محاسنها وآخر قائلا :

– هيا البت بنت موت ، إى والله البت حلوة وجميلة ومؤدبة ومش زى أمها طويلة اللسان اللى عايز حطعه وكانت أمها سنية قادمة فسمعته وهو يقول ذلك فقفزت عليه صارخة فيه ناشبة أظفارها فى رقبته وكاد الرجل أن يلقى حتفه لولا تدافع الرجال لإنقاذه وحضر حلاق الصحة لعلاجه.

البعض أخبر العمدة بوجود حالتين إحداهما وفاة والأخرى إصابة من يد أم المتوفى وقد أسرع إلى تليفونه لإبلاغ النقطة ليخبرهم بأن سعاد ابنة عوف عبد الصمد لاقت ربها اليوم إثر حادث فى البندر وأن الجثة بالمشرحة والنيابة تقوم بدورها وسنخبركم بكل جديد.

قفزت سنية على زوجها محاولة خنقه وهى تسبه بكل عبارات سيئة قائلة:

–عملت إيه فى بنتى؟ وبعد أن أنقذه الناس من يدها صاح بها الرجل :

–الله يخرب بيت مشورتك .،مش إنتى يا ولية وافحتى إنها تروح حدا الست الخوجاية ، الله يخرب مطانيك ، إنتى بتنسى يا ولية؟ نظرت إليه:

-يعنى البت عند الخوجاية؟

-أيوه ..

-يعنى البت ممتيتش (ماتت) ؟ يعيد صراخه:

-بتبشرى عليها ليه؟

-يعنى البت بخير ولسه فيها الروح؟

-أيوه ، وأنا بفكر أجيبها بكرة بلاش الحكاية دية. نظر إليه الناس بدهشة ومن بينهم إبراهيم أبو نبوت وهم لاعنين أصله وفصله وأنه رجل كاذب وساروا به إلى دوار العمدة الذى وجد نفسه فى ورطة وأنه قد أبلغ النقطة والتى أبلغت بدورها المركز بالحادث.

قضى عوف ليلته بسلاحليك العمدة بتهمة البلاغ الكاذب وحول فى اليوم التالى إلى النقطة حيث حصل على حقه من كرم الداخلية ثم إلى المركز فحصل على نصيبه الأكبر وأفرج عنه بضمان محل إقامته بعد أن علم وكيل النيابة بكل دقائق الموقف وأن الرجل لم يبلغ رسميا أى جهة ولا العمدة الذى تسرع بمجرد سماعه فضفضة بين رجلين دون تأكده من هذا الخبر.

بعد مُضى أسبوع

عاد الرجل إلى بيته بعد ثلاثة أيام بعد أن تورم فيهـــا قفـــاه وحصل على عدد من ركلات الجزاء ومسح بـــلاط النقطـــة والمركز ، نسى خلالها مأساة ابنته وهو لم يعد يفكر فيها بعـــد ما تعرض له خلال الأيام السابقة.

*****

افتقدت سعاد أباها لعدة أيام سادها الحزن والألم على قلبها الصغير وهى لا تعرف كيف التصرف وعلاج ما حدث لهـــا، فلقد تركها والدها وديعة عند تلك العائلة التى لا تعرفهم مُسبقا ولا تستطيع التكيف معهم.

فالحياة غير الحياة والناس مختلفو الطباع والشكل واللغـــة .. أين هى الآن مما سبق وهى تلهو فى حوارى القرية وأزقتها؟ إنها تحن إلى اللعب والسير حافية بدون حذاء يقيد حركتها ووسائل النظافة المتبعة هنا .. إنه أسلوب لم تعهده مـــن قبـــل .. أيـــن صوت أمها المرتفع وضجيجها التى تستيقظ عليه كل صـــباح؟ أين الحمار والماعز والأغنام ؟ أين التراب والطين وأين شـــجرة الجميز التى تذهب إليها وتأكل منها .. أين شقيقاتها ومعارفهن وأصدقائهن ؟ أين الفرن والكانون ورائحة الخبز المعد علـــيهم. أين أصوات الدواجن ومرحها معهم حين تـــذهب لإحـــضار البيض لأمها؟

جلست ساهمة مرات ومرات يغلفها البكاء ولا يفرج عنها سوى هذا الحيوان الأليف وهى أنثى الكلب "بربارة" التى تحضر على فترات لتلعب معها وتقفز على سريرها وتلعق وجهها وتحدث أصواتا خافتة كأنها تناديها هيا للعب والمرح فأنا الأخرى أعيش فى هذا المنزل بعيدة عن عائلتى وموطنى وحياتى التى تعودت عليها وأنا جرو صغير أتبع أمى وأخواتى وألعق صدرها وأنام بجوارها تداعبنى وتلاطفنى وتهمس فى أذنى.

حدث تقارب بينهما .. الطفلة والحيوان وكأن الله قد جمعهما ليأنس كل منهما بالآخر .. فهما روحان صغيرتان بريئتان لا تعرفان من شرور الدنيا شيء وكل اجتمع على مأساة واحدة ، الاغتراب والبعد عن الأهل وعدم المقدرة على الإفصاح عما بداخلهما وعدم المقدرة على التصرف والعودة إلى حياتهما الطبيعية السابقة.

هونت "بربارة" على صديقتها الطفلة ، فهى لا تهاب الحيوانات فقد تعودت على اللعب واللهو معهم سواء فى الحارة بالبلدة أو فى منزلهم المتواضع وهى تلاعب الأغنام والماعز وأطفالها كما أن الأطفال بطبعهم يرحبون بالحيوانات ويداعبونها والحيوانات من جهة أخرى تشعر بالألفة لهذا ، فالحجم متقارب ويشعرون بأنهم من نفس فصيلتهم .. فالأصوات خافضة والأيدى صغيرة ناعمة والحديث بينهم يبدو واضحا متفاهما لأنهم يجتمعون على شيء واحد .. وهو اللعب واللهو.

فى المساء أقبل "مسيو دوفان" وشـــاهد الطفلـــة فحـــاول ملاطفتها وملاعبتها حيث تذكره بابنه مكسيم وهو صغير كما أن للأطفال بريقا خاصا يجدد الحياة ويبعد الإنسان الجاد عـــن همومه وهو يلاحظ براءتهم بدون سعيهم للكـــسب والتـــربح والغش والكذب وتلفيق الأحداث والخداع الذى ورثه أبناء آدم منذ بدأ الخليقة .. الطفلة هى الأخرى نظرت إليه بدهشة.

فهذا الرجل الذى يرتدى زيا مخالفا لوالدها وشكله وحجمه وأسلوبه مخالف لأبيها ولكنه يجتمع معه فى خشونة الصوت وفى أسلوب عطفه ومودته.

جلس أمامها على حافة السرير ينظر إليها بكـــل عطـــف وشفقة ، العطف ناتج من حبه لها وهو لا يعلم عنها أى شىء فلقد فوجىء بوجودها وقد أخبرته زوجته عند حضوره بمفاجأة سارة ، فسار خلفها ليشاهد تلك المفاجأة حـــتى إذا شـــاهدها هتف قائلا:

- الله .. إنها رائعة يا جين .. إنها ملاك .. يـــا لـــك مـــن محظوظة فى العثور على هذا الملاك البشرى .. كيف وصـــلت إليها وما هو وضعها القانونى بالمترل؟

أخبرته: "دوفان" حبيبى إنها ابنة بائع متجول يدعى عوف .. هنا انتبهت الطفلة لأن اسم أبيها ذكر فبكت وهى الصغيرة التى لا تخشى من هذا التصرف .. فهذا هو سلاحها الذى زودهـــا به الخالق لكى تستنجد وتطلب العون وقد تأثر مسيو دوفـــان مربتا على كتفها الصغير ولاعب شعرها الناعم وملـــس علـــى

خديها الصغيرين وأمسك بأصابعها الرقيقة محاولا تهدئتها ناظرا إلى زوجته شبه دامع العين متأثرا من حال الطفلة متسائلا:

– جين لماذا ؟ ما كان يجب عليك فعل ذلك. أوضحت له أن هذا تم بموافقة الأب وأنها حاولت إطفاء وإشباع عاطفة الأمومة التى فقدتها منذ سفر ابنهم الوحيد "مكسيم" إلى وطنه فرنسا للدراسة بالجامعة العام الماضى ، موضحة له بأنها أم وتهفو للطفلة لمداعبتها وبثها الحب والعطف .. دوفان .. لا تتخيل حينما قمت اليوم بنظافتها وملاعبتها ومشطت شعرها .. كان قلبي يرقص طربا وسعادة .. إنه لشيء رائع هذا الشعور بالأمومة أن يعود إلى. عاتبها مكملا حديثه .. أؤيد هذا الشعور ولقد تناسيت شعور الطفلة التى انتزعتها من بيئتها ومن عائلتها .. إنها أصبحت يتيمة ووالداها مازالا على قيد الحياة .. فرغم سعادتى بوجودها إلا أننى اشعر بالحزن لهذا الوجه البرىء ودموعها تنهمر من عينيها الصغيرتين .. تخيلى لو حدث هذا مع ابنك مكسيم وهو فى نفس عمرها .. كيف سيكون عليه شعورك؟

آه يا طفلتى الصغيرة .. إننى أفكر فى أن أحملها وأذهب بها مع السائق إلى بلدهم وأعيدها إلى عائلتها.

غضبت زوجته طالبة منه الكف عن هذا وأنها بعد عدة أيام سوف تتعود على تلك الحياة الراقية التى ستوفرها لها. نظر إليها بكثير من الألم والحزن الذى غمر وجهه موضحا:

– جين.. ألا تشاهدي الطيور والحيوانات فى أقفاصها فى حديقة الحيوان ويقدم لها كل رعاية ورغم هذا ترفض كل ما

يقدم وإذا واتتها الفرصة للهرب فسوف تهرب؟ .. إنها الحياة والبيئة التى عاشوا بها ولا يستطيعون الاستغناء عنها.

بكل رفق ساعدته على النهوض طالبة منه إبدال ثيابه حتى يعد الطاهى الطعام .. أذعن لرغبتها ناهضا لتنفيذها ولحظتها رفعت الطفلة يدها لأعلى دليلا على رغبتها فى أن يحملها مثلما كان يفعل والدها وبدون حديث أو توضيح أعلنت هى عن رغبتها وهو فهم تلك الرغبة فعاد وانحنى عليها حاملا إياها فشعرت بسعادة من سماع صوته والتى لا تفهم منه أى كلمة.

سار بها خارج حجرتها وتبعته زوجته سعيدة فرحة بما ألم بزوجها من حبه لتلك الطفلة فهما الاثنان فى أشد الشوق لها .. تبعتهم بربارة وهى تهز زيلها بنباح قليل والفتاة تنظر إليها من فوق كتف دوفان وتلاعبها وهنا وضعها دوفان من على كتفه فقفزت خلف بربارة جريا ولعبا وصعدا إلى الدور العلوى ثم هبطا جريا وسعادة.

هذه هى الليلة الأولى على الطفلة وهى بعيدة عن عائلتها .. لم يغمض لها جفن وكانت ليلة بائسة ما بين البكاء تارة وبين التحدث وهى نائمة تارة أخرى حتى انبلج صباح اليوم التالى فصحت من نومها ونظرت حولها وهى فى دهشة .. أين أنا ؟ وأين عائلتى؟ .. وأين حياتى؟ .. أين أنا؟ .. اندفعت فى بكاء مؤلم فهرع إليها الزوجان محاولين تضميد جرحها النفسى.

حوالى العاشرة صباحا وبعد أن تناولت طعام إفطارها مع عائلتها الجديدة وحين تحاول تهيئتها للتعود على تلك الحياة وتعلمها أسماء أدوات الطعام ونوعيته بالفرنسية وتبدل لها ملابسها وتذهب بها إلى حديقة المنزل ترافقهما بربارة وهناك شاهدت عم نوبى ، هذا البواب الذى يقف مثل أجداده الفراعنة بكل شموخ وهدوء واحترام وهو مهتم بعمله ولا تفارق وجهه الابتسامة المضيئة ، رحب بها:

-صباح الخير يا سعاد .. عامله إيه يا بنتى؟ غمرتها السعادة فقد سمعت أصواتا تفهمها وتعبيرات تسمعها من والدها ومن كثير من الناس فى بلدتها. أجابته وهى حزينة:

-فين أبويا؟ .. عايزه أبويا .. عايزه إخواتى .. عايزه أرجع لدارنا .. واندفعت باكية وتأثر الرجل ونظر إليها وتذكر ابنته فاطمة القريبة منها فى العمر والحجم. تساءل: ماذا لو حدث لابنتى ما حدث لتلك الطفلة؟ سوف تبكى مثلها وسوف تتألم كما يتألم والداها الآن. إنه الفقر الذى دفع بهذا المسكين عوف لأن يسلم فلذة كبده للمدام. إنه الفقر الذى ألم بنا نحن الفقراء المساكين الذين حُرمنا نعمة الحياة الهانئة الراقية وكتب علينا أن نلهث وراء لقمة العيش بصحتنا وكرامتنا حتى بأعز شىء نملكه وهم فلذات أكبادنا ، لقد أصبحنا مثل الماعز والأغنام نبيع حرية أبنائنا نظير بعض الجنيهات والقروش القليلة حتى نشترى بها طعاما لأنفسنا حتى نظل على قيد الحياة وبالتالى نستطيع الاستمرار فى خدمة أسيادنا ، إذن نبيع كل شىء لنبقى

مستعدين لنعطيهم الراحة وكل ما يطلبونه منا ، آه عليك أيها الفقير! لك الله وليس لك شيء آخر.

أمسكت الطفلة بيده ونظرت إلى الشارع بينما نظر هو إلى باب الفيلا الداخلي وما زال يحاور نفسه متسائلا: ما هو شعور كلّ من المدام والمسيو دوفان لو أن أحدا طلب منهما أن يتنازلا عن ابنهما وهو طفل فى سن هذه المسكينة.

انزعج فسوف يقلبان الدنيا رأسا على عقب .. ثم عاد إلى هدوئه واستعاد وعيه بأن هذا لن يحدث أبدا ، إيه يا نوبى دماغك لفت وراحت على فين؟ خليك فى حالك وسلم بالأمر الواقع ، إحنا كده وحالتنا كده وربنا يديم علينا الصحة والعافية ويبعد عنا ولاد الحرام.

وقفت سعاد على السور الصغير المبنى والذى لا يزيد ارتفاعه عن نصف متر وأمسكت بأصابعها الصغيرة السور الحديدى المقام فوق السور المبنى والذى يحيط بالفيلا ونظرت إلى الشارع وهى تشاهد رجالا ونساء من كل الأشكال والأحجام والملابس فشعرت بسعادة أنها شاهدت بشرا أقرب إلى ما شاهدتهم فى بلدتها. تحرك قلبها بسعادة وهى تسمع وتشاهد هذا الخليط من الناس. أتى صبى فى العاشرة من عمره مهمل الثياب حافى القدمين واقترب منها متسائلا:

-بت. إنتى بتشتغلى خدامة فى البيت ده ؟

-لأ .. أبويا جابنى إمبارح وحيرجع يخدنى النهاردة.

-إنتِ مش بتفهمى حاج. أبوكى مش حيرجع لكى خالص , إنتِ خدامه. تركها وانصرف بعد أن أغمد خنجرا قويـــا فى قلبها. فهو يعلم أكثر منها بأن أباها لـــن يعـــود لإعادتهـــا إلى بلدهم. بكت وبربارة تلهو حولها. تركت الـــسور وجلـــست مستندة على حافة المبنى والمقام أعلاه السور الحديدى. سمعـــت جين صوت سعاد.

-سعاد , حبيب قلبى سعاد. أسرع عم نوبى بالعدو إليها:

-نعمين يا ست هانم.

-فين سعاد؟

-أهى جاعدة ريح سور الجنينة.

-حرام نوبى , ده تفل صغير. شمس شديد عليه كتير.

أسرعت إليها وخلفها نوبى وانحنت على الطفلة فحملتـــها مقبلة إياها , مالك سعاد؟ طفلتى .. نادت على البواب. أسرع نوبى :

-نعمين ست هانم .

-فين بربارة؟ تجول نوبى بعينيه وجسده فى أرجاء الحديقـــة حتى عثر على بربارة فأشار إليها بتتبعه حتى وصلا إلى "جـــين" فانتحت جين على أرضية الحديقة وهى مازالت ممسكة بسعاد وقربت الاثنان بعضهما لبعض.

رفعت بربارة قدميها الأماميتان ووضتعهما على كتف سعاد وتبادلا العناق واللعب وتركا جين واقفة تشاهد هذا الإبـــداع الإلاهي للتقارب والتفاهم بين الحيوان والإنسان.

تبارت جين فى نظافة ورعاية سعاد واحتضانها ومداعبتـــها تعاونها "فريدة" زوجة الطاهى كما أنها مازالـــت مـــستمرة فى تعليم الفتاة بعض أبجديات اللغة الفرنسية وأسماء الأشياء حولها والفتاة تسمع وتعيد ما قالته جين وكانت أسعد كلمة سمعتـــها جين من سعاد هى "ماما" ثم أعقبتها بكلمة "بابا". كل عـــدة ساعات تعيد عليها ما لقنته لها مسبقا مع إضافة بعض الكلمات الجديدة.

مازالت الهواجس وحالات البكاء تعاود سعاد مـــن حـــين لآخر ليلا وقد أثر هذا كثيرا فى كل من جين ودوفان وشـــعرا أنهما يبنيان سعادتهما على حساب تلك الطفلة.

مضى أسبوع على حضور الطفلة من بلدها وحياتها مع تلك العائلة الفرنسية. لم تسمع أو تشاهد خلالهـــا أى أحـــد مـــن عائلتها. جلست مع بربارة تلاعبها وفجأة سمعت النداء " الخس اللوز" وهى كلمة السحر التى تحفظها وصوت أبيها الذى يحمل كل معانى الحب والبهجة والحماية. قفزت على السور القصير ممسكة بالسور الحديدى وسمعت الصوت قادما مقتربا واشتمت رائحته وهو قادم فى اتجاه الفيلا.

أسرع عم نوبى خارج الفيلا وبعد قليل شاهده قادمـا. لم تستطع السيطرة على شعورها. هذا هو أبوها وحبيبها الـذى يشبعها بقبلاته كل مساء قبل نومها والذى يقبل يديها ويحضر لها "زر" بطاطا من الدكان ويمنع أى فرد فى العائلـة مـن أن يضربها أو يعنفها. بكل قوة تستطيع أن تخرجهـا مـن فمهـا الصغير نادت عليه .. آآبا .. آآبا .. شاهدته يهرول إليها مـن خارج السور الحديدى وتشابكت أيديهما حبا ولهفة.

وضع فمه بين أعمدة الحديد يقبلها باكيا سعيدا بها وهـى الأخرى تبادله بكاء وحبا. ربت عم نوبى على ظهره طالبا منه دخول الفيلا وتقبيل ابنته ومقابلة الست هانم. تحرك جهة باب الفيلا الخارجى ولكن سعاد تستصرخه:

-آآبا .. رايح فين؟ أجابها دامع العين.

-ألف وأجيلك .. لكنها صرخت.

-لأ .. إنت حتسبنى زى المرة اللى فاتت. حاول إقناعهـا ولكن الطفلة لم تصدقة. سار موازيا لها , هى من الداخل وهو من الخارج وبينهما السور حتى وصلا إلى باب الفيلا فاندفعت إليه فحملها مقبلا إياها وهى باكية بين ذراعيه.

خرجت جين الى الحديقة على هذا اللقاء العاصف الـدامع ولاحظ عم نوبى الدموع بعينيها الجميلتين. أشارت إلى عوف بيديها الاثنتين.

-تعالى عوف. تحرك إليها وهو مـازال حـاملا طفلتـه. استقبلته بالأنتريه كما استقبلته أول مرة وطلبت من الطاهى أن يعد له الشاى. استفسرت منه عن السبب فى تأخره تلك الفترة فأخبرها بما حدث له مع العمدة والأمن. استمعت بدهشة لمـا حدث له ومن اندفاع الناس فى الريف ومن الروايات والقصص غير المستندة إلى الواقع.

أثناء هذا كانت سعاد جالسة على ساقيه تلاعب شعيرات ذقنه القصيرة وتضع يدها على فمه وأذنه وعينيه , إنها تريد أن تتأكد من أن كل حواس أبيها موجودة معها وتشعر بها.

أخبرته جين بحالة سعاد وأنها آسفة لأنها جعلت الطفلة تبكى طول تلك الفترة وأنها تطالبه بأن يعيدها إلى أمهـا. ثم ناولتـه الجنيهين. بدا الحزن عليه محاولا أن يعيد الجنيهين إليها ولكنـها صممت على ذلك. أقبل عليهما عم نوبى مستأذنا فى أن يعطى برأي قد يفيدهما. سمحت له بإشارة من يدها .

-يا هانم .. سعاد ترجع مع عوف .. وبعد يـومين تلاتـة تيجى تانى معاه .. تفضل يومين تلاتة .. وترجع لهم .. بعـد كام مرة سعاد تتعود على كده ومش تخاف وعوف كل يـوم ييجى هنا وتشوفه .. يعنى البنت تشوف أبوها كل يوم سـوا هنا أو فى دارهم.

ظهر الارتياح لدى سماع جين لهذا الاقتراح ووافـق عليـه عوف.. غادر عوف الفيلا حاملا طفلته وهى تشير إلى جـين

"ماما" كما أشارت بيدها الصغيرة علامة الوداع مما أسعد جين كثيرا .. وضع عوف ابنته على عربة الخس وسار بها ينادى على بضاعته "الخس اللوز" وسعاد ضاحكة سعيدة بحواراته مع المشترين ومن حين لآخر يبتاع لها عسلية ونوجة وعيش وطعمية وجميعها أطعمة لم تتناولها فى منزل جين.

*****

عاد عوف آخر النهار إلى منزله حاملا طفلته بسعادة وقد غلبها النعاس أثناء العودة لطول فترة جلوسها تحت أشعة الشمس .. استقبلتها الأسرة بفرحة غامرة وعادت شقيقتها المتزوجة من العمل فى الحقل ترحب بها وقبل حلول المساء خرجت تلاعب صديقاتها فاطمة وفكية وست أبوها .. لقد عادت إلى حياتها الأولى.

مضى أسبوع على ذلك شبعت الطفلة من عائلتها فطلبت من والدها أن تعود لزيارة "ماما" و"بابا" وشجعتها أمها بسلوكها معها على ذلك حيث أشبعتها طول هذا الأسبوع ضربا وإهانة وعادت لتسمع العبارات السيئة والألفاظ الخارجة ولتشاهد الأوحال والأتربة ولسعات البراغيث والناموس ليلا.

*****

فى فيلا "نيس" عاد مسيو دوفان من عمله فى المساء فشاهد الوجوم والحزن على وجه زوجته جين واعتقد فى أول الأمر أن معضلة صحية ألمت بها فاستفسر منها عن حالتها ولكنها أجابته

باقتضاب بأنه لا شيء بها وأنها صحيحة ولا تـشكو مـن أى داء.. تركها مناديا على الطفلة .. سعاد.. سعاد .. أين أنتِ يا ملاكى الصغير؟ عاد إلى زوجته وهى ما زالت ترمقـه بنظـرة قوية .. ولكنه بادرها بقوله إنه يعتقد بأن الطفلة قد خلـدت لنومها مبكرا هذه الليلة وما هى إلا لحظة حتى أقبلت بربـارة تعوى بصوتها وتلف حوله محاولة الوقوف على أقدامها مستندة بقدميها الأماميتين عليه فاستفسر منها .. ماذا بك يا بربـارة؟ هل أصابك مرض؟ أعاد نظره إلى زوجته.. ماذا حدث لكمـا اليوم .. شاهد الدموع تجرى فى عينيها .. جلس بجوارها يملس على خديها بكل رقة وحنان ..أتبكين يا جين ؟ ما بك اليـوم .. هل حدث مكروه لأحد .. ازدادت الـدموع فى مقلتيهـا وارتمت على صدره باكية بصوت مؤثر قائلة: سعاد يا دوفان.. حبيبتى سعاد .. نظر إليها مليا وبدهشة.

ما بها سعاد؟ .. أرجوك أخـبريني ولا تـدعيني للـشك والوساوس تهاجمنى .. ماذا ألم بهذا الملاك؟ آه .. إن بربارة هى الأخرى تحتج وقد ألم بها الضيق ، ماذا حدث لطفلتنا؟ أمسك بكتفيها وهى الأخرى أمسكت بكتفـه والوجـه فى الوجـه والعيون تتلاقى وهى دامعة باكية وهو متألم ولا يعلـم مـاذا حدث .. تعيدها ثانية:

– سعاد غادرت الفيلا إلى منزل أسرتها يا دوفان .. خلاص دوفان.. ذهب قلبى وسعادتى .. تنهد كأنه استراح بأن أطمأن أن الأمر ليس بكارثة وليس بهذا السوء الـذى توقعـه فى أول

الأمر .. هدأ من حالها محاولا امتصاص غضبها وضيقها. أشعر بألمك حين لكن ما يريحنا أنها مع أسرتها وأنتِ تعلمين كم قاست تلك الطفلة الرقيقة ووجودها مع أسرتها هو الحل الصائب والرأى الصحيح .. تجيبه باكية:

– أعلم حبيبى لكنها كانت تملأ علىّ المترل لهوا وسعادة ومرحا رغم بكائها المتكرر المتقطع .. ساعدها على النهوض واتجها سويا إلى غرفتهما حتى يبدل ملابسه واستعدا لتناول طعامهما.

أحضر الطاهى الطعام وكان باديا عليه هو الآخر الحزن والألم وقد لاحظ ذلك مسيو دوفان واستفسر منه .. هل أنت بخير؟.. هز رأسه أنه بخير ولم يجب أو يتحدث والمعروف عنه كثرة الحديث والوجه المبتسم .. جلس الزوجان يحاولان تذوق الطعام ولكن شهيتهما فارقتهما ولم يتناولا أى شيء منه إلا اليسير وطالبا الطاهى برفعه من أمامهما .. هبطا إلى الدور الأسفل لسماع الموسيقى والتحدث سويا مثل كل يوم عن أحوال الوطن والأصدقاء من الجالية الفرنسية بالقاهرة والإسكندرية. أما بربارة فقد قفزت على ساق دوفان محاولة التعبير عن شعورها ولسان حالها يقول .. دوفان لقد فقدت صديقتى .. أرجوك أعدها ثانية !!!

مضت تلك الليلة حزينة على الزوجين وهما نائمان كل ينظر إلى الجهة الأخرى وهما يفكران:

جـــين : ماذا حدث لك وأنت السيدة القوية التى لا تتـــأثر بتلك العواطف والمشاعر الإنسانية بسرعة .. كيـــف تتـــألمين هكذا؟ لقد كان دوفان مُحقـــا فى أن يطلـــب مـــنى إعادهـــا لأسرها.. ما حال أمها وهى بعيدة عنها؟ .. فأنا لست بأمهـــا و لم تمكث معى سوى أسبوع مؤلم تخلله البكاء ورغـــم هـــذا أحببتها ولا أطيق فراقها .. آه إن أمها سعيدة الآن لأنها عادت إليها ثانية .. هذا يكفيني ويعطينى جرعة من السعادة بأن هناك آخرين سعداء بوجودها بينهم .. ولكن هذا البـــواب "نـــوبى" والذى اقترح بأن تذهب إليهم ثم تعود إلينا وتداوم على هـــذا يومين مع عائلتها ويومين معى .. لا أعتقد أن عائلتها ستوافق على ذلك وإذا وافقت فلن تستطيع طفلتى البقاء وســـتعود إلى بكائها ثانية.. اندفعت الدموع من خلال عينيها فى الظلام إلى الوسادة لتغمرها بهذا الألم وهذا الحزن النابع من قلبها والـــذى تعلق بالطفلة.. دوفـــان: نظر للجهة الأخرى واعتقد أن حبيبته وزوجته جين قد خلدت إلى نومها وحدث نفسه: آسف على اقتراحى جين لكننى كنت حزينا لحزن الطفلة و لم أكن أشـــعر بأنها ليست ذات قيمة بالنسبة لنا إلا مساء هذا اليـــوم حـــين عُدت و لم أجدها وشعرت بأن المترل قد غادره الفرح والسعادة وألم به الحزن والشقاء ورغم أننى لم أجلس معها فترات طويلة إلا أننى لا أستطيع الابتعاد عنها ..

آسف حبيبتى لقد سببت لك جرحا غائرا وأنـــا أعلـــم أن أمومتك شابة ولقد حاولتِ أن تنجبى المزيد من الأطفال لكـــن

لم تكن إرادة الله معنا بعد الحادث الذى ألم بى فى طريقى من باريس إلى مدينتنا تولوز ومنعنى من الإنجاب ثانية ..إنه فوق طاقتى وإن الله هو المتسبب فيه ولكن ماذا أفعل؟ وما هى قدرة الإنسان أمام قدرة الرب؟ .. لقد حرمنى الله أيضا من تلك النعمة وهذه الرغبة التى كنت أشاركك فيها .. لكن سعادتى بعودة سعاد إلى أسرتها قللت من حنينى لعدم رؤيتها وسوف أحاول إقناع والدها بأن يحضرها للجلوس معنا بضع ساعات كل شهر .

شعر دوفان بأن زوجته قد تصاب بالاكتئاب فهى قليلة الحديث تمضى وقتا طويلا جالسة فى سريرها تحملق فى الحائط أمامها ولا تضحك أو تتحرك .. حتى التريض على كورنيش المدينة توقفت عنه ولا تحادث صديقاتها .. لقد اعتكفت وقرر أن يصطحبها لأحد الأطباء بالقاهرة الأسبوع القادم .. تنهد الرجل وأخلد لنومه حزينا مثل كل يوم فلقد قل الحديث وشعر ببرودة الشيخوخة المبكرة تزحف إليه وإلى زوجته و لم يعد هناك اهتمام بالجديد الذى كان يميزهما بين أصدقائهما.

كل صباح يأتى عوف ببضاعته "الخس اللوز" فتسرع جين إلى الحديقة وهناك تشاهده بموكبه الذى لم يتغير منذ عشرة أعوام حينما شاهدته أول مرة وكان مكسيم وقتها عائدا من مدرسة القديس يوسف .. نفس الرجل ونفس الحمار ونفس الهلاهيل التى يرتديها .. كما لم تفارقه ابتسامته وهدوؤه مع الآخرين كما أنه عف اللسان دائما وكما قال لها نوبى أأن هذا

الرجل لو أن أحدا من الناس أخذ منه بضاعة و لم يدفع ثمنـــها فسيخجل أن يطالبه بها .. كانت سعيدة بتلك المقومات الـــتى يتمتع بها وسكينته ورضائه بحاله وهى التى كانت تعتقد بأنـــه يتمتع بزوجة على مستوى عال من الذوق والأدب لما لاحظته من سلوكه .. نادت عليه .. عوف .. عوف .. انتبه الرجـــل فأسرع إليها:

-نعمين يا ست هانم .. ابتسمت له كأنها تشاهد وتحـــدث سعاد.

-عوف. طفلة سعاد عامل إيه ؟ ابتسم الرجل بكل سعادة أبناء مصر البسطاء والذى عوضهم الله بالسماحة بـــديلا عـــن المال والجاه ..

-والله يا ست هانم بتسلم عليكى وعلى حضرة الخواجـــة "لفتان" أسرع إليه عم نوبى " "بالتصحيح" اسمه الخواجة دوفان " أيوه يا ست هانم "الخواجة دفيان" ضحكت على براءة الرجل وحدثته بعض الوقت عن ابنته سعاد.

هذا هو النمط اليومى منذ مغادرة الطفلة مترلها وشـــاركتها بربارة والتى تسرع بإطلاق احتجاجها على عوف معتبرة إيـــاه بأنه المتسبب فيما حدث لصديقتها ، كان الرجل سعيدا بهـــذا الموكب سواء من السيدة أو كلبها الذين يرحبان به كل يـــوم و لم يحدث هذا من قبل .. وقد شعر بأنهما أهل كما قال لعـــم

نوبى والذى ضحك من حديثه قائلا : أهل إيه يا رجل يا ور..
ور!!

*****

علمت سعاد بأن غدا الجمعة سوف يـــصطحبها والـــدها لزيارة "ماما ، بابا" فى المنصورة .. فارقها النوم وهـــى تنظـــر بعينيها فى ظلام الحجرة التى تنام فيها مع شقيقتيها زينب ومنيرة .. غدا سوف أشاهدهم ثانية وألعب مع بربارة .. ثم تذكرت أنها كانت تبكى وتريد العودة إلى قريتها وبيتها ولكنها تعيـــد تفكيرها بأنها المرة الأولى التى غادرت فيها منزلها ثم تـــذكرت حديث أمها طول الأسبوع الماضى وهى فى دهشة من تلـــك الألفاظ التى تسُب بها الآخرين متسائلة بأنها لم تـــسمع طـــول الأسبوع الماضى عند "ماما جين" مثل هذه الألفاظ. بل إن ماما "جين" تتمتع بصوت رقيق خفيض كما أن "بابا " هو الآخـــر رقيق الصوت وأشم كل رائحة طيبة فى منزلهم ، لكن أيكفـــى هذا بأن أقضي بعض الأيام معهم فى المنصورة ثم آتى إلى بلدتى لألاعب فاطمة وفكية وست أبوها وأشاهد أمى وأخواتى أمـــا أبى الحبيب فسوف أشاهده كل يوم فى المنصورة عند مروره من أمام فيلا "نيس" التى أقيم بها معهما؟ .. ابتسمت مع ملائكتها وهى تستعد لأن تصطحب أباها إلى المنصورة غدا وهى تمـــنى نفسها باللعب مع بربارة.

صباح اليوم التالى جلست على عربة الخس بعد أن انتهى عوف من تحميل بضاعته مثل كل يوم وبذل جهدا كبيرا.

طالب زوجته بأن تعد له كوبا من الشاى فنهرته بشدة أمام ابنته قائلة: اعملها إنت .. إنت مفيش منك فايدة وعامل زى الخيلة الكذابة .. ابتسم لها كعادته وغادرها قائلا :

-صباحنا ورد إن شاء الله..

شاهدت أباها سائرا بجوار العربة و لم يركب بجوارها سألته لماذا لا تركب بدلا من سيرك هكذا عدة كيلومترات ومثلها بداخل المدينة .. يجيبها بكل بساطة بأنه لا يرغب فى أن يثقل الحمولة على حماره .. ويوضح لها بطريقته:

-شوفى يا سعاد يا بنتى .. ما هو الحمار ده زينا بيتعب .. أيوه والنبى تلاقى الحمار من دوول علشان غلبان ومش بيعرف يتكلم لما يتعب يعمل إيه ؟ يروح دوغرى بارك فى الأرض وميمشيشى .. زعلان ما هو ابن ناس .. أمال!! هو جه منين؟.. ماهو له أب وأم زيتنا .. روح زينا .. وربنا وصانا على إننا ناخد بالنا من الحمير ومن الجطط والكلاب .. وساعات يا بت يا سعاد بيكون الحمير والجطط والكلاب دوول ملايكة .. إى والله ملايكة وربنا بعتهم علشان يشوف الناس المفترين اللى بيبهدلوهم .. واللى يعمل كده والعياذ بالله يسخطه ربنا .. تعرفى الواد عكاشة اللى شغال فى الوحدة المجمعة بيحول إيه؟

إنه راح مصر وشاف المساخيط اللى كانوا بيضربوا الحمير وربنا سخطهم حجر .. شفتى الرحمة بالحيوان مهمة إزاى؟ .. خللى بالك واوعى تضربى الكلب اللى عند الخوجاية لأرجع ألاجيكى مسخوطة حجر .. فاهمة يا سعاد؟

-حاضر يا با ..

*****

جلس مسيو دوفان وزوجته هذا الصباح لتناول إفطارهما وسمعا صوت عوف .. الخس اللوز .. نظر دوفان إليها قائلا:

-مش ناويه تسأليه عن سعاد؟

-أنا أخجل أن أضايق الرجل كل يوم بهذا السؤال المتكرر ويقف أمامى لا يعرف كيف يجيبنى وكلمة واحدة على لسانه.. بخير يا ست هانم .

سمعا جرس الفيلا الداخلى واستأذن عم نوبى .. نظرت إليه مدام جين:

-أيوه نوبى فيه إيه؟

-سعاد يا ست هانم .. تركا الطعام وسألته جين باهتمام.

-ماله سعاد يا نوبى؟ .. اكلم وقول فيه إيه راجل عجوز..

-سعاد يا ست هانم واجفة بره الفيلا مع أبوها عوف. وقفت فجأة وهى تسأله:

-إنت بتقول إيه يا نوبى؟ .. إنت بتخرف؟ وقف زوجهـــا بجوارها وتحركا إلى خارج الباب وبحديقة الفيلا شاهدا ســـعاد من خلال السور الحديدى تقف مع والدها خـــارج الـــسور وبربارة تقف خلف السور تنـــبح وتهـــز ذيلـــها وبمجـــرد أن شاهدتهما بربارة قفزت تجرى حولهما .. نظـــرت جـــين إلى زوجها ضاغطة على يديه بشدة وبصوت مرتفع قائلة : دوفان حبيبى .. طفلتى عادت ثانية .

أسرع نوبى لفتح باب الحديقة حيث اندفعت الطفلة فقابلتها بربارة وقفزت عليها ووقعا سويا فوق الحشائش بين ضحكاتها ونباح بربارة. انحنت فوقها جين تقبلها وسعاد تمسك بخصلات شعرها وتقبلها قائلة "بونجور ماما" ثم نظرت إلى دوفان الـــذى وقف يشاهد أغرب موقف إنسانى كما قال لأحد أصدقائه بعد ذلك .. قالت "بونجور بابا " اقترب منها وقبلها مثلما قبلـــت جين واجتمع الأربعة الزوج والزوجة والطفلة وبربارة فى دائرة حب قوية ونظر إليهم عم نوبى سعيدا وسمعوا من علـــى بعـــد صوت عوف".. مناديا "الخس اللوز" لقد ترك الرجل طفلته مع عائلتها الثانية سعيدة فشاهد وسمع وشعر بهذا الحب.

اعتذر دوفان لنائبه فى البنك طالبا منه إدارة العمل هذا اليوم لأنه فى استقبال شخصية هامة واعتقد نائبه وهو فرنسى أيـــضا باحتمال وجود القنصل الفرنسى فى ضيافة مسيو دوفان فأرسل فى طلب السائق يستفسر منه عن الشخصية الهامة التى ينتظرها المدير فى فيلته ..

وعندما أخبره السائق بالحقيقة التى شاهدها منذ ساعة اعتقد أن هذا السائق يتناول الكحوليات أو المخدرات مثـــل بـــاقى السائقين لأنه لم يصدق شيئا مما قاله وهو يعلم مقدار جديـــة مسيو دوفان والتزام زوجته جين ..

قضت الأسرة هذا اليوم فى مرح بعد أن قامـــت الطاهيـــة بعمل الحجر الصحى على الطفلة وأخرجـــت مـــن ملابـــسها وشعرها هذه الكائنات الموجودة بمترلهم والتى لا تريد مفارقـــة هؤلاء الفقراء.

ارتباط سعاد بالعائلة

بات واضحا بعد عودة الطفلة إلى فيلا "نيس" أنها قد تبدلت وتغيرت وفارقتها الوساوس والهواجس والحنين الزائد لعائلتها فقد تعودت على هؤلاء القوم وارتبطت بهم .. مدام جين ومسيو دوفان وبربارة وعم نوبي والطاهي عبده وزوجته فريدة.. شعرت أن هؤلاء هم أهلها ولا يقلون عنهم فى أى شيء .. شعرت مدام "جين" بالسعادة البالغة عندما علمت من سعاد بأنها تنوى قضاء هذا الأسبوع معهم والعودة يوم الخميس مع والدها للبلدة ثم تعودهم يوم السبت مثل إجازة المدارس التى لم تذهب إليها هى أو أى من أخواتها .

انشغلت سعاد بما يجرى فى المنزل سواء بالعطف الأبوى من مسيو دوفان أو الأمومة الرقيقة المتدفقة الحانية من مدام جين أو من لعبها ولهوها مع صديقتها بربارة .. أما جين فكان أمامها شيء هام تريد أن تقوم به وهو تعليم سعاد مفردات ومبادىء لغة بلدها واستفسر منها زوجها دوفان متسائلا لماذا تبذل الجهد فى هذا وهى تعلم بأن سعاد سوف تعود ثانية إلى عائلتها ولكنها أخبرته بأن العلم هو همى الأول كما أننى أشعر بأن سعاد ستبقى معنا يا دوفان وقد أسعده هذا قائلا إنه يسأل الرب فى صلواته بأن ينعم الله عليه بها حيث ملأت عليه باقى يومه حتى إنه ترك القراءة وسماع الراديو ليستمع لحديثها ويشاهدها وهى تلاعب بربارة.

غادرت سعاد فيلا نيس يوم الخميس مع والـــدها ثم عادت صباح السبت وقامت فريدة زوجة الطاهى للمرة الثالثة بنقلها للحجر الصحى فى الفيلا لتخلصها من مكاسب هـــذين اليومين الذى تأكدت منه أن منزلهم عامر بأصناف الحـــشرات الضارة لبنى الإنسان ..

انهمكت جين مع الطفلة فى مواصلة الـــتعلم وزاد عليـــه خروجهما سويا للتريض علـــى كـــورنيش النيـــل بالمدينـــة واصطحابها إلى المحلات والنادى الرياضى وقد أسعد هذا الطفلة خاصة أن جين لم تيأس من تعلم سعاد قواعد ومفردات لغتـــها الفرنسية فى الحديث وحُسن التصرف أثناء تناول الطعام والـــتى لم تهدأ عن القيام بها لتصحيح وضع موجود مع الطفلة بحكـــم النشأة والتعود.

نهاية الأسبوع لم تبد الطفلة الرغبة فى العـــودة إلى قريتـــهم بصحبة والدها والذى أَسعده هذا واندهش عم نوبى من شعوره وتصرفه كأب فأفاده بأنه يراها كل يـــوم ويلاحـــظ تقـــدمها ونظافتها وتحسن حالتها "وانحنى عليه قليلا":

-ياعم نوبى. لما ترجع البلـــد أمهـــا بتبهـــدلها فى الزريبـــة وتتوسخ.. خليها هنا .. يا سلام على نعمة النضافة .. فيه حد يطول يعيش فى النضافة والعز ده؟!!

أيقن عوف أن ابنته منتبهة إلى أين تكمن مصلحتها ومـــا الفائدة من عودتها لتهان بعد ساعتين وتجرى حافية فى الشارع

كما أن أمها سمعت من بعض أبناء البلدة بأن سعاد بنت عوف تعمل كخادمة فى البندر وتقوم بغسل الصحون وتنــام علــى الأرض وتأكل بقايا طعام أسيادها وتلصصت أمها عمن يكون وراء تلك الأقاويل وتفوه به على ابنتها هذا الحــديث حــتى علمت من وراء هذه الوشاية فأقامــت الــدنيا و لم تقعــدها وأنشبت أظفارها فى جسد تلك السيدة و لم تتركها إلا بعد أن أشفت غليلها فيها كما قال البعض.

مضى شهران منذ انضمام سعاد إلى أسرة "جين ودوفــان" والعيش معهما ، لم تفارق خلالها الأسرة إلا أياما قلائل وقــد مضى عليها أكثر من شهر لم تبد خلاله أى رغبــة فى زيــارة قريتها مكتفية بمشاهدة والدها يوميا وهو يبيع بضاعته أمام فيلا "نيس" وتسأله عن حال أمها وأخواتها وهو يطمئنها على حالهم وفى آخر مرة أخبرها بأن والدتها لم تتشاجر مع أحد من الجيران منذ ثلاثة أيام وهو يعتقد بأنها مريضة ويفكر فى عرضها علــى الحكيم فى الإسبتالية .. فأضحكها هذا .

أصبحت سعاد هى الشغل الشاغل لجميع الأفــراد بــالفيلا سواء أصحابها أو العاملين عندهم .. فزوجة الطاهى "فريــدة" تقوم على رعايتها ونظافتها كما تتابعها المدام "جــين" ، أمــا الطاهى فيستفسر منها عما ترغبه من طعام ويلبى احتياجها قبل السيدة جين والسيد دوفان .. أما عم نوبى فهو الذى ينبهها إلى أن والدها قادم أو أنه أرسل لها بزر بطاطا أو قطعــة عــسلية وتغمرها الفرحة بأى شيء تتلقاه منه .. أما بربارة فهى الأخت

غير الطبيعية للطفلة. فهى لا تفارقها وتنام بجوارها وتلاعبـــها وأصبحت العلاقة بينهما هى علاقة صديقتين إحـــداهما تنطـــق العربية والأخرى تنطق لغة لا يفهمها سوى سليمان الحكيم .. لكن التفاهم كان واضحا بينهما .. فإذا أمسكت الطفلة بالكرة تجرى بربارة وتقف فى الجهة المقابلة لتحضرها إليها ثم تقذفها.. وهكذا .. حتى إذا نامت بحديقة الفيلا أو على أحد الكراســـى أسرعت بربارة بإخبار السيدة جين أو فريدة بقليل من النبـــاح وهى تشير بفمها جهة الغرفة أو المكان الذى به ســـعاد ، بـــل أصبح تحرك بربارة بدونها يعنى بأن سعاد مشغولة بالحمـــام أو النوم أو الطعام .

*****

أما عن حال أسرة عوف فقد كانوا سعداء بما يأتى من وراء سعاد من مال .. فوالدها يعمل فى بيع الخس ولا يعود بـــأكثر من جنيه كل أسبوع هو مكسبه بعد كل هذا الجهد .. فـــإذا حصل من وراء طفلته على ما يساوى نصف مكسبه الشهرى وبدون أى مجهود فهذا يساعد على رفع من مستوى معيشتهم فى هذا الزمن .. كما أن ابنته تعيش حياة راقية سعيدة وكـــل من شاهدها بعد مُضى شهر على إقامتها عند مـــدام "جـــين" أدرك أنها ازدادت بهاء ورقة وجمالا وأنها لا تمـــت إلى عـــوف وزوجته بأى صلة.

*****

كان من الطبيعى أن تخرج سعاد وبربارة للعب بجوار الفيلا والشوارع المحيطة بها .. فالمنطقة راقية وبها العديد من الأجانب والمصريين الذين يتقلدون وظائف رفيعة وأصحاب أعمـــال .. كان باديا حُسن المستوى الاقتصادى الذى يتمتع به أهل الحى وهم جميعا من أصحاب الفيلات وكل واحد منهم لديه بواب وحارس للفيلا وسيارة وسائق .. يسود الحى الأمان ويعمل به كثير من أبناء النوبة فى الحراسة لما لهم من جلد وأمانـــة تجعـــل الناس راغبة فى أن يعملوا لديهم وهم أناس ذوو حياء وخجـــل كما أنهم يتعاونون سويا فى مطاردة أى مجرم أو معتـــد علـــى الحى.. فهم يد واحدة قوية.هذا يوم عادى مثل الأيام السابقة.. سعاد ترتدى فستانها الرقيق وحذاء وشراب أبـــيض وشـــعرها مصفف بعناية مع جمالها الطبيعى وبربارة لا تفارقها فهى مثـــل ظلها.. ابتعدوا كثيرا فى الشارع الخلفى وهما يلعبـــان ســـويا والهدوء يلف المنطقة. فجأة سُمع صوت قـــوى ارتعـــدا لـــه وخافت الطفلة وبكت وتوترت ونبحت بربارة وزاد من هـــذا التوتر والخوف أن شاهدا كلبا مسرعا قريبا منـــهما والـــدماء تنزف منه وبكت الطفلة وزاد توتر بربارة وأثناء ذلـــك أقبـــل نحوهم شاب يقود عربة كارو صغيرة يجرها حمـــار ومخصـــصة لنقل القمامة ولها صندوق من الصاج .. نبه الطفلة قـــائلا .. اختبئى بسرعة فرجال البوليس يقتلون الكلاب والقطط.

أثناء هذا شاهدا جنديين قادمين من الجهة الأخـــرى مـــن الشارع وفى يد كل واحد منهم بندقية والبعض قادم من الجهة

الأخرى ومعه بنادق أيضا , لقد أصبحت محاصرة مع الكلب وهى لا تفهم هل هى المقصودة أم كلبها أم كلاهما لكنه على كل الأحوال أثار فزعها .. أشار لهما الشاب بالقفز فى عربة القمامة.. استبقت بربارة سعاد لأن الجنديين اقتربا منهما بينما ساعدها الشاب للاختباء فى صندوق القمامة التى تحمله العربة الكارو الصغيرة .. بعد قليل سمعا نفس الصوت القوى وسمعا نباح كلب وهو يعوى دليلا على أنه أصيب وأنه على وشك الموت .. اندفعت بربارة محتجة على هذا بإرسال بعض نباحها ولكن الشاب طلب من سعاد أن تسكت الكلب حتى لا يقتلها العساكر .. فأشارت لها بالصمت فامتثلت لها.

أسرع عم نوبى على أصوات طلقات الرصاص وارتعدت مدام "جين" فى الفيلا من تلك الأصوات والهرج والمرج بالشارع مع تداخله بنباح الكلاب .. أسرع نوبى يلف الشوارع بحثا عن الطفلة وكلبها دون جدوى .. استفسر من جميع أبناء العمومة دون نتيجة والبعض ذكر له أنه شاهدها تسير فى هذا الاتجاه فاتجه إليه وسأل أحد بلدياته هناك فأخبره أنه شاهدها تسير باتجاه آخر فعاد إلى حيث بدأ. كانت السيدة جين تطلبه دون مجيب فطلبت من "عبده" الطاهى التخلص من ملابس المطبخ والبحث عنه. ثلاث ساعات عاد بعدها نوبى يُخْفى حنين ليبلغ السيدة بفقد الطفلة وكلبها. وقفت قليلا مندهشة وهى لا تصدق أن يحدث هذا فى تلك المدينة الهادئة الوديعة. خرجت فى صحبة فريدة ونوبى للتجول بكل الشوارع

والطرقات الجانبية دون جدوى. تورمت قدماها ولكنها لم تعبأ بهذا فقد تورم قلبها وأدمى دماء ساخنة ودمعــت عيونهــا و لم تجف.

عادت ثانية إلى فيلتها وأبلغت مسيو دوفان الذى أخبرهــا بأنه قادم للتو وقام بعدة اتصالات مع أصدقائه وبعض رجــال الأمن.. عاد إلى فيلته ولحقت به عدة سيارات بها عــدد مــن رجال الشرطة وألقوا عليهم بأسئلة كثيرة وحصلوا على بعض صور لها.

مازال الشاب يحضر القمامة ويضعها فى صــندوق العربــة والطفلة وبربارة تتخلصان منها بقدر الإمكان والشاب يخبرهما بألا يخافا وما عليهما سوى الاختباء وعدم الظهور. أشارت إليه الطفلة بالموافقة بينما بربارة تداعب وجه سعاد ببعض اللعقات السريعة.

*****

توقف الشاب بعد أن سار مسافة كبيرة خارج المدينة حيث لم تشاهد سعاد أى مبان منذ وقت مضى. سمعت صوته قائلاً : "هيييس" وهذا يعنى أمر للحمار بالتوقف وهى مــن الريــف وتعلم هذا .. نظر إليها ليساعدها قائلا: لقد وصلنا والمنطقــة هنا آمنة ولا تخافى أنت وكلبك الذى قفز بجوارها بعد خروجها من الصندوق .. سألته أين ماما جين؟ .. أخبرها بأنه ســيمر عليها ويخبرها بأنك هنا ومعك كلبــك أيــضا .. أضــافت

للتوضيح .. بربارة صـاحبتى!! .. أجابها أيـوه ، بربـارة صاحبتك.

نظرت إلى المكان وهو غريب عليها ولا تعلم ما هى تلـك المنطقة ولماذا كل تلك الأكوام من القمامة. سـارت بربـارة بجوارها حتى وصلا إلى منزل صغير ردىء مـن الخـارج وفى الداخل صفق جامع القمامة قائلا:

-يا معلم .. مش عايز ترد .. بلاش يا معلم .. يا معلمة... سمع صوتا نسائيا حانيا قادما من الداخل.

-أيوه يا للى بتنده .. مين إنت ؟

-أنا بريزة .. أيوه .. بريزة أبو شامة يا معلمة .. أكملـت حديثها وهى ما زالت بالداخل.

-جيتك إيه ياد يا بريزة .. شطبت بدرى ليه؟ .. من قلـة الشغل؟ .. أقبلت المعلمة وهى سيدة بدينة نـسبيا فى مقتبـل الأربعين من عمرها ترتدى قميص نوم خفيف وبعض الأساور الذهبية فى يديها وتسمع وسوستها "صوتهم" حينما تحرك يديها عامدة ذلك لكى ينتبه الناس لما تحمله من مـصاغ. شـاهدت الطفلة فضربت على صدرها بدهشة.

- يخرب بيت أهلك يا بريزة. جيبت البت الحلوة دى منين؟

-الزمن رماها عليا يا معلمة .. دى شغل بتاع شهر .. عايز الحلاوة .. ضحكت واقتربت من الطفلة وخلعت عنها السلسة الذهبية والحلق أيضا.

-تعالى يا روح أمك .. تعالى اسمك إيه ؟

-سعاد .. قبلتها وأخرجت ورقة نقدية من صدرها وناولتها للشاب الذى احتج مشيرا إليها.

-إيه يا معلمة؟ .. دا شوية الدهب اللى علقتيهم يسوا الشىء الفلانى .. تقومى تتمخطرى وتطلعى خمسه جنيه .. ليه؟ جايبلك دكر بط !!

-خدها ورجعها لأهلها .. دى فيها مؤبد يا حمار يا بن نبوية القرعة .. هات يا له الفلوس .. امتنع الشاب طالبا الزيادة .. ضحكت وهى تغمز بعينيها.

-الليلة دية بتاعتك . البت "جولنار"رجعت تانى وسابت الواد حرنكش النتن.

نزعت المعلمة كل ملابس الطفلة وأبدلتها بملابس قديمة لديها وأخبرتها بأنها فعلت ذلك حتى لا يعرفها رجال البوليس المجرمين ويقتلوها مثل ما قتلوا الكلاب. ربتت على كتفها:

-اهدي يا بنتى .. ونامى مستريحة إنتى وكلبك.

أعدت المعلمة صندوقا من الكرتون وناولته لها بعد أن فردته ومعه قطعة قماش بالية طالبة منها النوم ، سألتها سعاد عن الطعام ، تنبهت المعلمة بأن الطفلة حديثة عليهم ولا تعلم نظامهم. تركتها وغابت قليلا ثم عادت وهى تحمل بعض كسرات خبز ذات رائحة مقززة وطبق ألمنيوم صغير به بقايا ملوخية. حاولت الصغيرة تناول الطعام ولكنه كان غير محبب. هكذا سُرقت الطفلة وُخلعت عنها ثيابها وستنام أرضا فوق كرتونة وقدم لها طعام فاسد قد يقضى على حياتها .. كل تلك المعلومات أخبرها به الواد "صُنقر" وهو طفل فى نفس عمرها لكنه متواجد بهذا المكان منذ عام .. لقد فقد فى مولد السيد البدوى ولا يعرف كيف حضر هنا بعد أن نام فى المولد منذ عام ولا يعرف أين أسرته حيث إن أسرته ممن يذهبون إلى الموالد ويقيمون "غرزة" لتقديم الشاى والقهوة والجوزة.

أجهشت الطفلة بالبكاء وقد أثار هذا بربارة التى ظلت تنبح بجوارها مما دفع بأحد الأطفال إلى ضربها وطردها من الحجرة التى تأوى اثنى عشر طفلا وطفلة وأعمارهم ما بين الثامنة والعاشرة .. بكل الطرق استطاعت بربارة العودة والجلوس بجوار سعاد وعندما حاولوا طردها ثانية هاجمتهم مما اضطرهم إلى الابتعاد عنها بينما طلبت منها سعاد الهدوء. ونامت بجوارها حتى الصباح.

صباحا فزعت الطفلة على صوت أجش يسبهم بكل كلمات السباب التى سمعته من أمها أو التى لم تسمعه .. نهض

الأطفال واحتجت بربارة على تلك المعاملة بـإطلاق بعض نباحها مما أزعج جابر الذى هوى عليها بعصا معه مخصصة لإدارة عمله .. صرخت بربارة وجرت وهى تعوى وقد أثرت الضربة على إحدى قدميها الخلفيتين حيث كانت تجرى وهى عرجاء وقد دفع هذا بسعاد لسب جابر والهجوم عليه لضربه ولكنها لم تستطع فأبدلت ذلك بعضة قوية من أسنانها فنزع منها الرجل وناولها ضربة بقدمه فى خصرها قذفت بها بعيدا فأسرع إليها صنقر حيث شاهد الدماء تنزف منها.

صرخ أحد الأطفال باكيا وقد تجمعوا حولها ولكن جابر أطاح فيهم بعصاه وتنبهت بربارة بأن صديقتها أصابها شىء ما فتحاملت عائدة إلى المكان وشاهدتها وهى نائمة على جانبها والدماء على وجهها و لم تتحرك فتأكد لها أنها ماتت وأن ما حدث مثل ما حدث بالأمس لبنى جلدتها فقفزت رغم ما بها من ألم على وجه جابر ناشبة فيه مخالبها فصرخ وأسرع المعلم والمعلمة إليه فشاهداه ينزف بغزارة والطفلة ملقاة تنزف منها الدماء أيضا.شعرت المعلمة بأن كارثة ستحدق بهم. فلقد ماتت الطفلة فى هذا المكان الذى هو ملكهم ومكان عملهم ، كل الجهات الرسمية فى بلدية المدينة تعلم هذا وأمامها عشرة أطفال سيشهدون بما تم .. ما هو الحل؟ .. صرخت فى الأطفال طالبة منهم التوجه للعمل وتوجهت إلى الطفلة محاولة إفاقتها من إغماءتها متمنية ذلك. أفاقت الطفلة وقد أسعد هذا المعلمة التى احتضنتها وحملتها إلى حجرتها تطعمها ووضعت بعض "البن" فوق الجرح حتى جف وتوقف النزيف.

أما عن جابر فما زال يتألم مما أصابه من صديقتها بربارة رغم ما به من عيوب فهو طويل القامة لا يعرف شيئا عن

النظافة وكل ملابسه ويداه غاية فى القذارة يسير حافى القدمين لا يكف عن تدخين السجائر وأسنانه طويلة وغير منتظمة تشبه أسنان الجمل العجوز وشعر رأسه غير مكتمل نظرا لإصابته بمرض جلدى فى فروة الرأس واحتمال أنه القراع الإنجليزي وصوته به حشرجة وكثيرا ما يبصق بجواره أما مكان إعاشته فبداخل أكوام القمامة حيث يفترش كرتونة ويلتحف ببطانية قديمة عثر عليه بداخل القمامة. لا يعرف أسرته فقد أحضره أحد رجال المعلم أبو ركبة منذ سبعة أعوام وكان فى الثانية عشرة من عمره بعد أن عثر عليه أسفل كوبرى طلخا مريضا مما ألم به من جوع وبرد وقد حصل الرجل الذى أحضره على تعميرتين حشيش مما يقوم المعلم بتوزيعه على زبائنه بواسطة رجاله من جامعى القمامة.

*****

فى نفس هذا اليوم الذى اختطفت فيه سعاد كان عوف سائرا أمام الفيلا ينادى على بضاعته .. "الخس اللوز" . اضطرب كلٌ من دوفان وجين ، ماذا سيقولان لهذا الأب؟ ماذا سيكون شعوره ورد فعله؟ بعد قليل حضر عم نوبى مصطحبا عوف كما أمره سيده هذا الصباح. تحدث دوفان إلى عوف و لم يكن الرجلان قد تقابلا من قبل وشرح دوفان ما حدث لابنته سعاد بعد أن سرد أمامه مقدمة طويلة ثم أخبره بان رجال الأمن يقومون بعملهم خير قيام و...... سرح عوف وهو يسمع ويشاهد الرجل يحدثه وهو لا يعرف ماذا

حدث لكن المؤكد أن طفلته فقدت وراحت بـــدون رجعـــة. أخيرا قال له:

- مسيو عوف .. مش تزعل وإحنا حنعمل كل شيء مهم علشان الطفلة سعاد.

غادرهما الرجل بدون أن يقول شيئا وجلس على الرصـــيف بعيدا عن الفيلا باكيا قائلا :

-"عليه العوض ومنه العوض" أقبل عليه نوبى وبعض أبنـــاء عمومته لمحاولة الأخذ بيده والتهدئة من حالته ولكنه لم يكن لهم سامع ولا مجيب. غادرهم فى هذا اليوم و لم يعد بعـــدها. لقـــد بقى عوف فى منزله لا يغادره عازفا عن كل شيء إلا وقـــت صلاة الجمعة بينما استقبلت أمها الخبر بكل حزن لكنها سرعان ما لملمت أشلاءها خاصة بعد أن شاهدت حالة زوجها المتردية وما آل إليه حالهم. لقد فقدنا طفلتنا ، ما هو الذى فى يدنا أن نفعله؟ ، الكثير من أبناء الفقراء يصابون ويموتون دون طرح أى سؤال .. لماذا؟ فالأرض فسيحة فمن يمـــوت يـــدفن وعويـــل وصراخ ليومين وينتهى كل شيء ويحصل على لقب مرحوم ، هذه هى حياتنا نحن الفقراء.

*****

بعد عدة أيام تماثلت الطفلة للشفاء وانضمت إلى الأطفـــال الذى يعملون فى فرز القمامة .. كل طفل مزود بسيخ حديـــد صغير فى طول المسطرة يفرز به الزبالة .. البعض مسئول عـــن

تجميع المعادن من حديد وصفيح ونحاس وألمنيوم .. والـــبعض الآخر مسئول عن الكرتون والورق وآخرين عن الخبز وجـــزء عن عظام الحيوانات أو الملابس الملقاة بالقمامة .. العمل مـــن الصباح حتى المساء أو حتى يتم الانتهاء من فرز القمامة.

حنفى أبو ركبة

يدير تلك الإمبراطورية المعلم "حنفى أبو ركبة" وهو رجل فى الخمسين من العمر نحيف البدن ذو شارب طويل وغير متصل أى بدون شعر أسفل الأنف خشن الصوت وذو نبرة عالية كما أنه هادىء الحوار فى المناقشة وهو من نفس عينة الأطفال الذين يعملون لديه فقد سرقه أحد المجرمين نظير فدية من والده وإلا قتله ولكن الأب لم يدفع له فقذف به فى النيل ولكن أحد الصيادين شاهد ذلك فأسرع إليه وأنقذه وعاش مع هذا الرجل وأسرته عامين وكان عمره وقتها خمسة أعوام وأخيرا عرض عليه أحد أصدقائه أن يأخذه للمعلم سعدون العفش المسئول عن مقلب القمامة وعمل معه وتزوج ابنته جمالات وبعد وفاة المعلم تقدمت إلى العمل لديه فتاتان شقيقتان فتزوجهما دفعة واحدة وعندما نبهه بعض معارفه إلى أن ذلك محرم ولا يجوز قال كلمته المأثورة كل شىء عند أبو ركبة يجوز وهكذا أصبح يجمع بين الأختين.

كان كل همه فى الحياة هو المال والنساء والمخدرات وله من الزوجات ثلاث كل واحدة منهن مسئولة عن تخصص ما ومعروف عنه القتل بدون إنذار .. فإذا شعر أن أحدا يخونه أو يسرقه فبدون أن ينبهه أو يعاتبه يفاجىء الجميع بأن هذا الشخص قد مات فى نفس الليلة إما بسُم أو غرقا ولا يترك أى أدلة تفصح عن شخصيته خاصة أن من يعمل معه هم من

الخارجين على القانون فلا يستطيعون الاقتراب من رجال الشرطة .. أما عُماله فهم من الأطفال الصغار المخطوفون من أمهاتهم أثناء انشغالهن فى السوق أو أثناء الرغى فى الموالد أو مثل حالة سعاد وهى اللعب أمام المنزل أو فى الحارة .. هؤلاء يعملون بلا أجر سوى النوم أرضا واكل حلة أرز ومثلها خضار.

لا توجد دورات مياة ولا يستطيع أحد منهم المخاطرة بترك المكان فصبيانه فى كل مكان حول المنطقة بالإضافة إلى بعض الكلاب البرية الخطرة على الغرباء.

ليلا تعود سعاد بعد مجهود العمل المضنى وتتناول الطعام السيء الإعداد ثم تتجه لتنام على الكرتونة المخصصة لها كما كان هناك نظام صارم فى عدم تعدى الأطفال بعضهم على بعض حتى يضمن المعلم أبو ركبة الاهتمام بالعمل وعدم التشاجر والمناطحة ، العقاب من المعلم كان معروفا وهو عدة لسعات من سيخ حديد ساخن تكوى به أقدام هؤلاء الأطفال. نامت الطفلة باكية مثلها مثل كل من حولها فجميعهم قد فقدوا الأهل والحرية ولكن الشيء السعيد فى حياتهم هو تقاربهم سويا حيث إن ظروفهم متشابهة.

*****

أرسل عمدة قرية أبوسيف فى طلب عوف عندما علم أنه يجلس فى منزله ولا يغادره منذ أسبوع و لم يصدق حكاية أن

ابنته اختطفت فى البندر وعندما واجهه العمدة بما علم به أكـد له عوف ذلك وأن هذا نابع من كرهه للحياة بسبب فقد ابنته سعاد .. ثار عليه العمدة محذرا إياه بأنه سيبلغ النقطة بذلك إذا أصر على هذا اللغو الذى يتبعه فى كل مرة ولكن الرجل صمم على كلامه وأنه لا يعبأ بالنقطة ولا بالمركز وقد شعر العمـدة بأن الرجل كفر .. كيف يقول هذا؟ ألا يعلم هذا المغفل أن النقطة والمركز هم خلفاء الله فى الأرض؟ ومن يغضبون عليـه فالموت أهون من غضبهم.

اقتاده ثلاثة من الخفر الى النقطة وجريمتـه هـى التـهاون والتقليل من قيمة رجال النقطة والمركز ثم ادعاءه بأن ابنته سعاد اختطفت فى البندر وهذه هى المرة الثانية التى يفتعلـها هـذا الرجل فى خلال عدة أشهر .. استقبل استقبال الفـاتحين مـن رجال الشرطة فتورم قفاه وسمع من الشتائم والسباب مـن لم يعتد عليه أولاد الحرام فى الشارع وبعدها حـول إلى المركـز حيث لديه صلاحيات أكثر فتورم جسده وغير جنسه وأطلـق عليه اسم نسائى ومسح بلاط المركز لمدة أسبوع ومسح أحذية الضباط والصولات ونام فى عراء المركز متسائلا: لمـاذا كـل هذا؟ أنا المجنى عليه .. انا لست الجانى لقد فقدت ابنتى وأعامل هكذا؟ .. أدمعت عيون الرجل وهو يمسح بلاط المركز ويهان بكلماهم التى هى أبعد ما يكون عن الدين والإنسانية.

أخيرا جاءت المعلومات من مديرية أمن الدقهلية تفيد بـأن سعاد عوف فقدت واحتمال أنها اختطفت وأن الرجل لم يبلغ

بلاغا كاذبا .. أفرج عنه من المركز فعـاد إلى النقطـة الـتى أحضرته ليظل بها يومين ليكمل مسيرة الإهانة ثم بعدها سـلم إلى عمدة البلدة الذى حذره من الإتيان بهذا الفعل ثانية بينمـا عوف يحاول إفهامه بأنه لا فى المرة الأولى ولا الثانية تقدم ببلاغ وأنه المظلوم ولكن العمدة لم يفهم كلامه وتركه لحال سـبيله ليعود إلى منزله بعد أن قضى قرابة العشرة أيام فى عذاب مـع رجال السلطة.

أما عن زوجته فقد أصابتها الحيرة ما بين حال رجلها ومـا بين الاكتساب والاسترزاق لكى تكمل الأسرة حياتها ولقـد استعوضت الأم ربها فى صغيرتها وتنام ليلا والدموع تملأ عينيها حسرة عليها متسائلة:

–يا ترى إنتى فين يا سعاد؟ .. يا ترى بتكلـى وبتـشربى؟ وتزداد دموعها على صغيرتها التى تجاوزت الأعوام السبعة بعدة شهور وهى ما زالت صغيرة وتحتاج عون أمها.

*****

جين هى الأخرى تحدث نفسها وتؤنبها على مـا أقـدمت عليه وأنها كانت ترنو إلى تقدم الطفلة والعناية بها وأفـصحت عن هذا لإحدى صديقاتها فى المدينة بأنها كانت تمـنى نفـسها بتربية الطفلة وتعلمها وتتخرج من الجامعة وتزوجها وليس هذا اختطافا من أسرتها بل مساعدة لتلك الأسرة ولهذه الطفلة وهى

التى كانت تنبىء بأنها ذات قدرات كبيرة ولهـــا مـــن الـــذكاء الطبيعى الذى يساعدها على ذلك.

أما عن دوفان فكان فى حيرة من حال الطفلة وشعر بتأنيب الضمير وأنه وزوجته كانا السبب الرئيسى فى فقـــدها وهـــو مازال يفكر فى حالها وما تؤول إليه فى المستقبل وهل هى على قيد الحياة أم لاقت ربها؟

مضت ثلاثة أسابيع على اختفاء الطفلة ولا أثر لها ورجـــال الشرطة أعيتهم كل السبل فلم يعثروا على أى دليل يساعدهم فى معرفة مكان اختفائها .. أخيرا وصل الخبر اليقين بـــالعثور على الطفلة غريقة فى أحد افرع نهر النيل وقد تحلل جزء مـــن جسدها لكن الغريقة فى نفس عمر الطفلة وتحمل الكثير مـــن مواصفاتها لكن وجهها غير واضح المعالم من تـــأثير بقائهـــا فى المياه فترة ثلاثة أيام.

*****

أغمى على مدام جين وهاجمها المرض النفسى وألقت بكل المسئولية على عاتقها و لم تقوَ على الصمود فمرضت ونقلـــت إلى المستشفى وشعر مسيو دوفان أنه سيفقد زوجته بعد أن فقد الطفلة وكلبه .. سُلمت الطفلة إلى أسرتها ومعها تصريح الدفن وأقيم الصراخ والعويل وأذيعت القصص والأقاويل عن وفاتهـــا وأن السبب فى ذلك يعود الى عصابة اختطفتها حتى تستطيع أن تفتح بها كنزا وهذه طلبات الجان بأنه لابد من أن تسال دمـــاء

طفلة صغيرة لم تبلغ الأعوام العشرة على الكثر .. دفن جثمانها فى مدافن الصدقة بالقرية لأن عائلتها لا تمتلــك مـــدفنا وورى جسدها التراب وخرجت الحكايات عن أن عفريـــت ســعاد يظهر فى بعض الأحيان وشاهدته بعض النساء لـــيلا وأصـــبح الناس يتحدثون عن عفريت سعاد وعوف يمنى نفسه بأن يشاهد عفريت ابنته حتى يسأله عن حالها والتى أفقدته الحسرة واللوعة اتزانه.

*****

عادت مدام جين إلى فيلتها بعد أن تحسنت حالتها كما ظهرت بربارة والتى ما إن شاهدتها جين حتى شـــعرت بمـــا ألم بالطفلة.. فلقد كانت بربارة تعرج وملطخة بالأوساخ وهزيلة الجسد وتعوى فحملتها إلى العيادة البيطرية والتى تم علاجهـــا وعلاج كسر قدمها السفلى من ضربة شومة جـــابر فى بدايـــة اختطاف سعاد وطلب منها الطبيب عدم السماح لها بالحركـــة لمدة شهرين حتى يلتئم الكسر .. أصبحت بربارة قعيدة الفـــيلا تحاول إفهام جين رسالة ما ولكنها لا تفهمها وكلما مر جامع القمامة بريزه من أمام الفيلا تعوى وتحاول الإفلات من قيـــدها دون جدوى.

ثلاثة أشهر مضت منذ اختفاء سعاد وتناسى الناس فى البلدة ما حدث للطفلة ولكن مسيو دوفان وزوجته لم تفقدهم تلـــك الأيام ما حدث لها مع استمرارهم لمساعدة أسرتها ماديا كمـــا

عاد عوف إلى السير ببضاعته "الخس اللوز" فكانت جين تخرج لدى سماع صوته لتراه وتقول: كأننى أرى سعاد وتندفع فى بكائها وهى تشاهد ألعابها وملابسها وتحتضن تلك الملابس باكية دامعة .. لقد فارق هذه الأسرة كل معنى للحياة السعيدة ولم تغادر عقولهم ذكراها.

*****

أما عن سعاد فهى تعمل مع زملائها الأطفال المساكين والذى أوقعهم حظهم السيء مع هؤلاء الناس إما إهمالا من ذويهم أو اختطافا مثل ما حدث معها .. أثناء عملها سمعت صوت نباح كلب فنظرت خلفها فشاهدت بربارة بعد أن عولجت وضمد جراحها. أسرعت إليها تقبلها ولعبا سويا وهى سعيدة بها فشاهدهم جابر فأطلق لسانه بالسباب فهربت بربارة واختفت بين أكوام القمامة حتى ابتعد وبعدها عادت ثانية للعب والاحتفال بصديقتها.

استمر هذا الحال يوميا حيث تقفز بربارة من فوق السور الحديدى للفيلا لتقطع عدة كيلومترات حتى تصل إلى صديقتها وهى الحيوان الأبكم الذى لا يستطيع أن يتكلم وهى تعلم سرا هاما يفيد تلك الطفلة كما يفيد أسرتها والأهم هو إفادة تلك السيدة الحزينة التى حملت كل تلك المأساة على عاتقها.

فى أحد الأيام والأمطار تهطل بغزارة ولا ينفع معها العمل فى أكوام القمامة جلس الأطفال متلاصقى الأجساد إتقاء

البرودة الشديدة فالملابس البالية التى يرتدونها لا تقـيهم تلـك البرودة التى تهاجمهم سواء من الطقس أو من أرضـية الحجـرة البعيدة عن كل الشروط الصحية .. كل يقص قصته .. قصت سعاد ما حدث لها وأعاد صُنقر روايته وهى فقده لأسـرته فى المولد .. و"إستر صمويل" التى أخبرتهم بأنها لم تر أسرتها فقـد تربت فى هذا المكان وأن المعلمة لواحظ تقول لها أنها ابنة حرام أى ليس لها أب أو أم .. وهى تسأل ما هـى ابنـة الحـرام ؟ ويجيبها صنقر بان أبناء الحرام هم الذين تلدهم أمهاتهم من غير زواج.

فتاة أخرى فى عامها الرابع عشر ظهرت عليهـا علامـات الأنوثة واسمها "رشيدة" .. توضح بأنها جاءت هنـا بعـد أن طردها زوج أمها من المنزل وحلف على أمها طلاقا بالتلاتـه بأنها لن تبقى معهم يوما واحدا فطلبت منى أمى أن اذهب لبيت خالتى .. توجهت لبيت خالتى وهو قريب من بيت أمى وهناك طلب زوجها طردى قائلا أنا مش فاتحها تكية .. خرجت من بيت خالتى عائدة إلى بيت أمى ولكنها رفضت دخولى بعد أن صفعها زوجها أمامى على وجهها وبكت وصرخت فارتعدت وعدوت أجرى فى الشارع وكان عمرى وقتها تسعة أعـوام فقابلنى رجل وحكيت له قصتى فأخذنى من يدى وذهب بى إلى أحد اماكن التخديم موصيا علىّ المسئول والذى سـألنى هـل سبق لى الخدمة فى منزل قبل هذا من دونه وأعلمته بأنه لم يسبق لى الخدمة .. فأرسلنى لأحد دور الملاجىء لأعمل هناك.

عملت عدة أشهر لكن إحدى المشرفات كانت عنيفة معى وتسببت فى طردى فخرجت هائمة من الملجأ وأثنـــاء ســـيرى قابلتنى المعلمة لواحظ وسألتنى عن حالى وخاصة أنـــنى كنـــت أبكى وملابسى قديمة وكنت فى أشد حالات الجـــوع وأســـير حافية القدمين فى عز برد الشتاء .. عرضت على العمل وهأنذا أقيم وأعمل هنا.

جاء الدور على أكبرهم عمرا .. اسمـــي "جلنـــار أمـــير" تزوجت وعمرى ثمانية عشر عاما من عامل فى شـــركة كفـــر الدوار للنسيج ، كنا سعداء وعشنا ثلاثة أعـــوام دون إنجـــاب ولاحظت أن زوجى قد تململ من هـــذا وفى إحـــدى الأيـــام أخبرنى بأنه يفكر فى الزواج لأننى لا أنجب وقد أجبتـــه علـــى الفور واحتمال أنك لا تنجب ، صفعنى على وجهى رغم أنـــه حينما قال إنى لم أنجب لم أصفعه لكنه استباح لنفسه أن يقلـــل من شأنى وعندما رددت عليه بمثلها لم يعجبه هذا فصفعنى. لماذا يعاملنى هكذا؟ حدثت مشاكل بيننا وحاول الأصدقاء والأهل حلها ، نتصالح يوما ونتخاصم أياما ، علمت من صديقة لى بأن زوجى قد تزوج من امرأة أخرى كانت متزوجة وتوفى زوجها منذ عدة أشهر ولها ثلاثة أطفال وهو يذهب ليقـــيم معهـــا فى شقتها بعض الأيام، تضايقت وقررت أن أواجهه. اســـتمع لى بكل هدوء وكان هذا اليوم شديد الحرارة وكنـــت أرتـــدى ملابس خفيفة تشف ما تحت جسدى من ملامح النساء الـــتى نتباهى بها ، أخذ بيدى إلى باب الشقة بكل هدوء. تـــساءلت.

ماذا تريد؟ أجابني: أنا أسمع صوت دقا خافتا على الباب وأعتقد أنه شقيقك ، افتحي له الباب ، صدقته وفتحت الباب نصف فتحة فإذا به يدفعني خارج الشقة ويغلق الباب وأنا أقف أمام باب الشقة شبه عارية والناس طلوعا ونزولا وأنا بتلك الملابس الخفيفة ، شعرت بخجل شديد. أدق على الباب صارخة طالبة منه فتحه حتى أرتدى ثيابى وهو رافض وأنا على هذا الحال. تجمع الجيران وأحدهم أحضر عباءة أتستر بها بعد أن خلع عنى زوجى كل حيائى. بكيت واستضافتنى إحدى العائلات حتى الصباح حتى وصل أخى بعد أن علم بما حدث حاملا لى ملابس ارتديها.

ارتديت ملابسى بينما أرسل لى زوجى بورقة الطلاق البائن. لم تعد هناك علاقة بينى وبينه. أيقنت ما وصلت إليه. اصطحبني أخى إلى منزله وبعد عدة أيام سمعت شجارا بينه وبين زوجته وهى تخبره .. يا أنا يا أختك .. حاول أن يستدر رحمتها بأننا أيتام وليس لها أحد بالدنيا بعد الله سواى لكن دون جدوى .. فكرت بأن منزل أخى الحبيب سوف ينهار وتغادره زوجته .. ماذا أفعل؟ .. خرجت ليلا من المنزل وهمت على وجهى بالشوارع وعملت فى مدينة دمنهور كخادمة أعمل طول النهار نظير البيات والطعام ورغم هذا طردتنى سيدة المنزل لأنها شاهدت زوجها أثناء محاولة الاعتداء على فى المطبخ الذى أنام به .. أنا لم أطاوعه ولم أذهب إليه .. أنا المظلومة ولكنها طردتنى .. وأثناء مغادرتى المنزل ربتت هذه

السيدة على كتفى قائلة "جلنار" ..أنا آسفة لهذا لكنه زوجى.. هل أستطيع طرد زوجى؟ ليس معقولا وأنا أعلم أنك مظلومة ولكن الظالم لا أستطيع أن أتصرف معه وإلا قلب على الأمور وجعلنى أنا المطرودة فأنا لا أملك شيئا فى هذا المترل .. كل شيء باسمه فالمال الذى نعيش عليه يحصل عليه من عمله حتى الأبناء الذى لا يتحمل المشقة في إنجاهم سوى دقائق قليلة وأنا أحملهم شهورا وأرعاهم أعواما طويلة يكتبون باسمه وبطاقة التموين والكهرباء وكل شيء باسمه .. "جلنار" صدقينى نحن النساء ليست لنا قيمة سوى أن نعمل خادمات فى منازل أزواجنا وخليلات فى أسرهم وأمهات لأطفالهم , الاعتراض مرفوض لأى عمل مشين يقومون به .. تخيلى لو أن زوجا شاهد زوجته تذهب إلى خادمهم أو سائقهم فى مخدعه تطلب النوم معه .. ماذا يحدث؟ .. أنت تعرفين .. الموت قتلا .. والفضيحة لها ولعائلتها أو الطلاق والطرد فى الشارع , "جلنار" أنتِ جميلة وصغيرة وستجدين مثل زوجى كثيرين , تزوجى وابعدي نفسك عن هذا الطريق الخطير والذى إذا استطعت أن تحمى نفسك منه مرة فلن تستطيعي حماية نفسك مرات أخرى.. الأرملة والمطلقة هى أشهى شيء للذئاب من البشر.. احترسى والله معكِ.

غادرت شقتها وأنا متأكدة من صدق حديثها ولكن كيف أنفذه؟ .. أريد إجابة منكم على هذا السؤال .. أسمعتم أن فتاة أو سيدة ذهبت تقول لرجل إننى اطلب الزواج منك؟ !! يجيب

البعض .. لا لم نسمع والبعض استسلم للضحك .. إذن كيف أتصرف؟ .. سارت بى الأمور سيئة فعملت فى مزرعة دواجن مع زوج وزوجته وأخبرت الزوجة بعد عدة أيام من عملى بنصيحة السيدة وقد أيدتها وقررت مساعدتى ، فى إحدى الأيام جاءت تخبرنى بأنها عثرت على شخص راغب فى الزواج بى وعلى علىّ وهى "عدم الإنجاب" سعدت بأنى سأجد بغيتى .. حضر الرجل وهو متقدم فى العمر وليس به وسامة تجعل السيدة منا تسعد بقربه .. قلت فى نفسى عُدّيه مثل الدواء فهو مهم وغير مرغوب .. تزوجنا لأربعة أشهر شاهدت فيها صنوف العذاب لم يكن إنسانا طبيعيا .. يسأل البعض كيف؟ سأخبركم رغم أن البعض منكم صغار لكنه هام حتى تأخذوا حذركم .. يحتاج إلى المخدرات حتى يستطيع أن يقوم بعمله كزوج .. وهذا يدفعه الى الصرف والإنفاق على هذا الكيف!!

كل هذا ضايقنى وزادت المشاكل وأخيرا طلبت منه الطلاق وأمام صاحب المزرعة والذى كان وسيطا قال الرجل: ـــ" هو أنا اجوزتك علشان أطلقك"؟ . سأله صديقه.

– وضح ما تقول .. أخبرنا بأنه تحايل على ذلك وأتى بشخص يرتدى لبس المشايخ ومعه دفتر التموين للبقال المجاور لهم واثنين من أصحاب الكيف وقام بتلك الخديعة .. أحبائى ليست الخديعة علىّ فقط لكنها على الله الذى أمرنا بهذا .. لقد طرده صديقه وبصق عليه داعيا الله أن ينتقم منه .. وأخيرا وصلت إلى هنا عندما كنت أعمل خادمة فى أحد المنازل

وعرض على "بريزة" بأن أحضر للعمل هنا ونتزوج .. لكنه مخادع يريد جسدا لامرأة دون زواج .. لعنة الله عليهم جميعا.. اندفعت في بكاء مؤلم والتف الأطفال حولها يقدمون لها مواساتهم ويقبلونها .. انتبهت قائلة .. كلنا يد واحدة ولابد أن ندافع عن بعض .. اتفقنا؟ .. الجميع بصوت واحد.

-اتفقنا.

الدفــاع عن النفس

سارت الأمور بهؤلاء التعساء الذين شعروا بـــأن المجتمـــع ظلمهم وأن الجميع وقفوا ضدهم وها هـــم يعيـــشون فى أدنى مستوى بين البشر بل إنهم يشعرون أنهم أقل من ذلك فهم مثل الكلاب الضالة تعيش على بقايا غذاء الآخرين على الفتات وما يلفظه المجتمع من القاذورات التى يتخلص منها وهم المنوط بهم أن يستقبلوا هذا الفتات وتلك القمامة .. أصبحوا يجلسون كل مساء يتحدثون فيشعرون بالطمأنينة على أنفـــسهم بعـــد أن تكاتفوا واتحدوا ضد أى معتد عليهم .. بل زاد من ذلك بـــأن حددوا أحدهم مراقبا بالخارج حتى لا يفاجأوا بهجوم أو قدوم شخص مباغت لا يرغبون به.

اقترحت عليهم "جلنار" بأن يعينوا أحدا منهم ليصبح قريبا من منزل المعلم ليستمع لكل الأخبار ويحملها لهم حتى يعلمـــوا ما ينوون أن يفعلوه بهم ويعرفوا أسرارهم حتى يمكنهم الضغط عليهم بتلك الأسرار .. اقترحت رشيدة إرسال ســعاد لهــذه المهمة فهى صغيرة الحجم ويمكنها الاختبــاء خلــف أكــوام الحجارة الملقاة أمام منزل المعلم .. جلست "جلنــار" لتوضــح للطفلة كيفية التصنت وسماع الأخبار وألا تنسى شيئا مما يقال كما أخبرتها بأنها سوف ترسل لها إحدى الفتيات كـــل فتـــرة لتطمئن عليها وتعلم الأخبار أولا بأول .. اصطحبتها رشـــيدة وحددت لها المكان الذى يجب أن تختبىء به .. جلست الطفلة

ليلا لتسمع ما يقال بداخل المنزل ولكن النعاس غلبها فنامت دون أن تعلم أى شيء مما يقال .. علمت رشيدة بذلك عندما ذهبت لتفقد مكان الطفلة فى عملها فشاهدتها تغط فى نومها .. قررت "جلنار" عدم تكليف سعاد بأى شيء الآن .. فهى صغيرة ويمكنها التعلم بمرافقة أخرى أكبر منها عمرا .. فأرسلت "إستر" بديلا عنها.

مضى أسبوعان على هذا النظام وأصبحت "جلنار" تعلم الكثير عن المعلم وتجارته وأتباعه ومدى مخالفتهم للقانون سواء فى تدخين المخدرات وشرائها من بعض التجار وتوزيعها لزبائنه مع عمال جامعى القمامة فى أحياء المدينة. صباح اليوم التالى هطلت الأمطار بشدة فركن الجميع إلى الحجرة يستأنسون ببعضهم البعض وأعدت لهم جلنار الشاى وبعض الحلوى التى عُثر عليها بداخل صندوق ملقى بالقمامة ولكن طعمه مستساغ لمن هم فى حالتهم.

أخبرهم "الناضروجى" بقدوم جابر ومعه شخصان .. استقبلتهم جلنار خارج الحجرة .. متسائلة:

-أيوه يا جابر .. عايز إيه؟ المطرة لسه بتنزل .. ابتسم لها ابتسامة صفراء بعد أن جال ببصره فى أجزاء جسدها وقال:

-أبدا .. زملا جدد انضموا لكم .. تركهما عائدا إلى مخبأه بين أكوام القمامة ليدخن سيجارة محشوة بالحشيش كعادته.

أهلا وسهلا .. هكذا رحبت بهما جلنار ودخلت بهما على أصدقائها .. وعرفتهما بكل شخص .. أنـــا جلنـــار .. وده صنقر.. ودى إستر ودى رشيدة ودى سعاد وده حليم والتلاتة اللى فى الآخر هما رئيفة ووداد وصباح .. وداوود اللى شوفتوه واقف بره ..

جلست بجوارهما .. وهى تنظر إليهما .. صبى فى الخامـــسة عشرة من عمرة وفتاة تقريبا فى نفس عمره.

-إيه .. إنتم مين؟ أجابها الصبى:

-أنا يعقوب. ودى سارة وتعتبر زى أختى .. رحبوا بهمـــا وأضافت كوبين من الشاى لهما ..أكملت جلنار حديثها أثناء انشغالها بإعداد الشاى.

-إحنا هنا زى الإخوات .. كل اللى فى الأوضة دى بس. وزى ما إنتم شاعرين كلنا ضعاف وملناش قيمـــة فى الـــدنيا وأهلنا تخلوا عنا ورمونا فى الشارع مع الكلاب وفيه منا كـــتير اعتدوا عليهم بالضرب ، مين حيحمى واحدة طردها أهلها فى الشارع؟! علشان كده كلنا إيد واحدة وأى واحد فينا يتعرض للأذى كلنا نسيب اللى فى أيدنا ونروح له ونحميه ، مفهوم يا إخواتى وحبايبى؟

أسعدت هذه المقدمة وهذا الترحيب بالوافدين الجديـــدين. تكلم الوافد الجديد : اسمي يعقوب وأنا فى الإعدادية هـــددنى أبويا وقال :

-لو سقطت يا بن الكلب حيكون نهار أمك إسود .. عليا الطلاق بالتلاتة لأدبحك زى ما دبحت عبده الحنش وأنت عارف أبوك قلبه ميت .. فاهم يا له. من أربع تشهر ظهرت النتيجة وسقطت فى الامتحان .. طيب ما هو أبويا حيطلق مراته أو يدبحنى وأنا عارف إنه مجرم والناس بتأجره لقتل اللى مضايقين منهم ، هربت ومرجعتش البيت ، وعلى فكرة أمى ماتت من خمس سنين وهو مجوز واحدة تانيه غيرها وهى ست طيبة وتبقى أم "وأشار جهة سارة" .. وعلشان كده أنا حبيتها وقلت بقى لى أخت .. المهم أنا قابلت سارة فى الشارع ولما عرفت نيتى قالت أنا كمان هربانة معاك. وسارة حتقول على مشكلتها لكم .. رحب بها الموجودون. تحدثت:

-أنا عمرى زى عمر يعقوب وأبوه يبقى جوز أمى وهو راجل مجرم وشديد ويعمل أى حاجة .. قال لى يعقوب مفيش غير إننا نهرب .. يوم ظهور النتيجة هربت قبل ما أعرف إن يعقوب ناوي يهرب ، أخدت هدوم له وليا وسيبنا البلد ورحنا اشتغلنا فى مصنع طوب لحد ما جه جابر بعربية كارو محملة كاوتش قديم عشان بتوع الطوب يولعوه لتحميص الطوب. شافنا وقال الشغلة دية متعبة عليكم .. ما تيجوا تشتغلوا معانا. وقال لنا على نوع الشغل .. هربنا معاه ووصلنا النهاردة وهو عارف إن يعقوب أخويا. آدى كل حكايتنا.

طلبت جلنار من الأولاد الذين معها جمع عدد من أسياخ الحديد وإحضارها دون علم جابر أو غيره .. تجمع عدد من

أسياخ الحديد ووزعت على كل الموجودين سيخا باستثناء سعاد لصغر عمرها وقالت لهم:

-كل واحد معاه سلاح .. أى هجوم علينا نقوم بالرد وضرب المهاجم .. فاهمين ؟ أجابوا ، فاهمين يا جلنار.

استمرت الأحوال على وتيرتها عمل شاق طول النهار وجلوس للتسامر سويا يستمعون فيه لحكايات وقصص غريبة لكن كان يجمعهم الاضطهاد من الأهل والأقارب وجميعهم يرون أنهم بعيدون عن الله لأنهم لا يعلمون شيئا عنه سوى الاسم وبعض ما يذكره الآخرون أمامهم وهذا بسبب الأهل غير المتمسكين بدينهم.

*****

مضت أكثر من خمسة أشهر على وفاة الطفلة سعاد ونسى الجميع أمرها و لم تعد فى بالهم سوى ذكرى عندما تشاهد أمها سنية بعض صديقاتها فتتذكر بأن ابنتها كانت تلاعبهن وقد أثر هذا عليها فتلاشى تقريبا سوء سلوكها وأصبحت حميمة مع الناس وخاصة السيدات وأشفق البعض عليها والبعض شعر بأن الله انتقم منها لسوء سلوكها أما عوف فهو مثل أبي الهول لم يتغير أو يتبدل سوى بعض الشيب الذى غزا شعر رأسه وقد اكتفى الرجل بهذا الوضع وأن يعمل مثل الماكينة ويعود إلى مترله ليحصل على راحته بعد عناء يوم شاق .. أدى هذا التغير فى أخلاق وتصرفات الأم سنية إلى تعاطف بعض السيدات

معها مما دفع بإحداهن إلى أن تخطب زينب ابنتها لابنها عبد السميع وقد أسعد هذا الأسرة بأن استمعوا إلى زغاريد الفرح التى لم يسمعوها فى مترلهم منذ زواج عزيزة شقيقتها الكبرى منذ ثلاثة أعوام.

*****

تماثلت مدام جين للشفاء كما عاد دوفان إلى عمله وكل الأمور عادت إلى طبيعتها وكأن سعاد لم تكن هنا أو أنها جاءت للزيارة وعادت إلى مترلها ولكن التى لم تهدأ ولم تنس ما حدث الكلبة بربارة والتى لم تهدأ طول تلك الفترة خاصة عندما تشاهد "بريزة" الزبال .. أصبحت بربارة أشد عودا وعادت إلى حالتها السابقة تجرى خلف مدام جين أثناء تريضها فى الشارع. فى احدى تلك المرات اختفت بربارة من أمام نظر مدام جين ودهشت السيدة لهذا وهى تعلم أن بربارة لا تطيق الابتعاد عنها وتذكرت تلك الفترة أثناء وجود سعاد فى فيلتها حيث تشغل بها بربارة. لكن بعد وفاة سعاد أصبحت هى الرفيق والصديق. تتساءل: أين أنت بربارة؟ عادت إلى فيلتها مستاءة وأخبرت زوجة الطاهى فريدة مما دفعها للضحك وحين تسألها عما يضحكها فأخبرت السيدة بأن بربارة أعجبت بكلب وذهبت إليه حتى تنجب وتحضر لنا كلابا صغيرة.

دهشت السيدة وقد فات عليها هذا فى غمار اهتمامها بسعاد وما لحق بهم بعد وفاتها. ابتسمت وارتضت بهذا التحليل

لاختفاء بربارة والتى من حقها حسب الإعلان العالمى لحقــوق الإنسان أن تختار شريك حياتها ووالــد أطفالهــا. آه بربـــارة ستنجب لنا كلابا صغيرة. انتظرتها حتى تعود لتخبرها بـــالخبر الصادق من تصرفاتها وهل وفقت فى عروس محتــرم أو أنهــا فشلت وهى التى كانت ترغب فى أن تقرنها بعروس يقطــن فى فيلا بمنطقة جاردن سيتى بالقاهرة عند صديقتها "داينيليه" لكن كل شىء قسمة ونصيب .. آه سعاد حبيبتى كنت أتمنى مــن الرب أن يحافظ عليك وتعيــشى معـــى وتتعلمـــى وتكـــبرى وأزوجك مثل بربارة التى سوف تتزوج من حبيب القلب .. آه وأتبعتها ببعض الدموع السريعة.

*****

أثناء جلوس جميع الأصدقاء من المضطهدين فى الأرض كما أطلق عليهم ابن المدارس يعقوب هذا الاسم شاهدوا كلبا صغير الحجم أبيض اللون ذا شكل جميل يتفرس وجوه الموجودين وهز زيله ثم قفز فوق سعاد يلعق وجهها بكل عنف والفتاة تقبلـــه سعيدة بعودته وتحدثه ، "وى شان وى بربارة ، جيتـــيم ، وى كونتنت ، مامه بب باه". وقبلته وكل ما حدثته به أنها قالت: أهلا كلبى أهلا بربارة أنا سعيدة وأحبك وماما وبابا . نظـــروا إليها يسألونها ماذا تقولين ؟ فأجابتهم بما تعنى وقد استفـــسروا منها عن عائلتها فأخبرتهم بأنها ابنة الخواجة دوفان ويعمـــل فى البنك.

سألتها جلنار. كيف حضرتِ إلى هنـا ؟ فـأخبرتهم بـأن "بريزة" خطفها وأتى بها إلى هنا وهى تلعـب أمـام الفـيلا. أشارت الزعيمة لهم بأن سعاد ليست فى حاجة لأن تعيش معنا فلها عائلة تحبها وأقترح عليكم أن نعيدها ثانية إلـيهم وهـذا نستفيد من وجودها إذا احتجنا أى شيء وفى نفـس الوقـت نتخلص من هذا القذر بريزة .. ما رأيكم؟ أيدوا رأيها لكـن كيف نساعدها على الهرب؟ أشارت إلى يعقوب وهى تخـبره بأنك ابن مدارس فأنت المتعلم بيننا.

- حليم .. أحضر ورقة وقلما.

- من أين؟

القمامة مملوءة بالأوراق استحسن أنظفها وأحضرها وأنـتِ سارة توجد مجموعة أقلام مكسورة فى حجرتى أحضرتها مـن القمامة تخيرى أحسنها وائتِ به .. يعقوب .. أمامك الورقـة والقلم واكتب .. أنا سعاد مخطوفة فى مستودع قمامة المدينـة طرف المعلم أبو ركبة واللى خطفنى بريزة الزبال مـن أمـام الفيلا.. تعالى ماما وبابا ساعدونى .. لفـت الورقـة جيـدا وربطتها على ظهر بربارة وطلبت من سعاد أن تأمرها بالعودة إلى المنزل.

همست سعاد فى أذنها وبربارة رافضة تريد البقاء معها. أخيرا أقنعتها فقفزت بربارة خارج الحجرة تعدو فى اتجاه المنزل ولكن كلاب المنطقة هاجموها وسمع الأطفال وجلنار أصوات نبـاح

الكلاب. قالت لهم الآن اهجموا على كلاب أبو ركبة وأنقذوا كلب سعاد. خرجوا جميعا حاملين الأسياخ الحديدية واتجهـوا نحو كلاب أبو ركبة ضربا بالأسياخ فقتلوا واحـدا وأصـابوا ثلاثة وهرب الباقون بينما أنقذوا بربارة من أنياب تلك الكلاب المفترسة.

أسرعت بربارة إلى الفيلا وقد شـعرت بتعـب والـدماء تتساقط من جسدها. جلست تستريح قليلا ولكنها شعرت بأن أجلها قد دنا فأسرعت الخطى تريد استباق الزمن. ها هـي فى أول الشارع تجرى نابحة فسمع صوتها عم نوبى فأسرع لإخبار الهانم التى أمرته بفتح الباب حتى تتشرف بدخول تلك العروس انتظارا لأطفالها القادمين. صاحت صارخة.

آه دوفان حبيبى. ستغمر الفيلا بعد عدة أشهر نباح كلاب صغيرة أبناء حبيبتى بربارة. دخلت بربارة إلى الفيلا ونوبى يتبعها مندهشا من شكلها وهيأتها والدماء تنزف منها فصعدت للدور العلوى وقفزت إلى داخل حجرة سعاد وفوق سريرها نبحـت والدماء تسيل منها وجين وفريدة زوجة الطـاهى لحقـا بهـا وحاولت جين تهدئتها ولكن بربارة مازالت تعوى وتنبح وقـد خف صوتها وأشارت بفمها جهة الـدولاب ففتحتـه جـين فقفزت بربارة إليه وأمسكت بإحدى فساتين سعاد بأسـنانها ونامت فوقه ووضعت أنفها بين طياته وصوتها بائس شبه بـاك فطلبت جين من فريدة إرسال زوجها لإحضار الطبيب.

وقفت بربارة ثانية وأشارت بفمها إلى الربطة التى على جانبها والتى بها الورقة وفريدة تخبر السيدة بأنها تريد منا فتح الورقة ولكن جين كانت فى شغل شاغل لحال بربارة. نامت بربارة فوق فستان سعاد ثانية .. سكتت قليلا ثم نبحت نبحة قوية ثم خافتة وأسلمت الروح بين بكاء جين وفريدة بينما حضر دوفان وشاهد آثار الدماء فى مدخل الفيلا وصعد إلى أعلى بعد أن أوضح له عم نوبى السبب فشاهد بربارة نائمة فى سرير سعاد وفوق فستانها والدماء تلفه وقد لفظت أنفاسها.

إنقاذ سـعاد

مضى أسبوع منذ وفاة بربارة والسيدة جين مندهشة لما حدث منها واعتقدت بأن تصرف بربارة بهذه الكيفية لهو دليل أكيد على حبها لصديقتها الراحلة سعاد لذا فقد أرادت أن يكون آخر شيء تشتم رائحته هو رائحة الصديقة الراحلة. تحادث فريدة زوجة الطاهى وتسألها بعض الأسئلة والتى تأكدت بعدها أنها احتفظت بفستان سعاد الذى ماتت فوقه بربارة وعليه دمائها فقالت:

-ده فستان مهم كتير فريدة لأنه بتاع مرحومة سعاد ومرحومه بربارة .. حافظ عليه كتير.

-حاضر يا ست هانم. والورقة اللى كانت مع بربارة حنعمل فيها إيه؟ اندهشت جين:

-عن أى ورقة تتحدثين ؟ ذهبت فريدة وأحضرتها.

فتحت الورقة ولكنها لم تستطع فهم الجملة المكتوبة. نادت على عبده الطباخ وهى تعلم عنه أنه يقرأ ويكتب.

-عبده .. افتح ورقة. تناول الورقة وفتحها وقرأ ما بها ثم أعاد القراءة غير قادر على استيعاب ما تحتويه بينما جين تنظر له ولزوجته. وأخيرا انفكت عقدة لسانه وأوضح للمدام ما هو مكتوب بالورقة. دهشت لما قاله وعلقت قائلة:

-إيه دى عبده؟ .. كلام مش كويس .. إزاى طفل سعاد يرجع من عند الرب ويكتب كلام زى دى؟ اقترح عليها الاستفسار من الخواجة دوفان. أمسكت بالتليفون وطلبت دوفان وأخبرته بالفرنسية بما قرأه عبده. طالبها بالحفاظ على الورقة وعدم إخبار أحد. بعد نصف ساعة حضر دوفان وتبعته سيارتان للشرطة وبعد أن قام رجال الشرطة بتحية السيدة تسلموا الورقة وقرأوها. اتصل أحدهم ببلدية المنصورة للاستفسار عن حنفى أبو ركبة فأفادوهم بأنه مسئول القمامة فى المدينة وهو يقيم فى مقلب القمامة بخارج المدينة. حضر بعض المرشدين المسئولين عن المنطقة وأخبروهم بأن المدعو بريزة هو المسئول عن تلك المنطقة. بعد قليل حضر أحد المخبرين ليعلن لقائده بأن المدعو بريزة وصل أول الشارع. تركوه حتى آخر النهار وتبعوه إلى المنطقة وهاجمت قوة من الشرطة المكان وألقوا القبض على كل المتواجدين به. فى مديرية الأمن استقبلت جين ودوفان سعاد بالدهشة والبكاء غير مصدقين أنها مازالت على قيد الحياة.

تم الإفراج عن باقى المقبوض عليهم ولكن بريزة حول إلى المحاكمة. هكذا عادت سعاد الى الفيلا فى مقابل فقد بربارة لحياتها وكأنه كتب على ذلك الحيوان أن يدفع ثمن ضرر الإنسان لبنى الإنسان.

حزنت الطفلة على فقد بربارة بينما كانت سعادة كل من جين ودوفان لا توصف. فى اليوم التالى بعد أن قامت فريدة

بفتح الحجر الصحى للمرة الرابعة لسعاد ونظافتها بعد الشهور الستة التى قضتها مع هؤلاء القوم استراحت سعاد فى سريرها وقامت من نومها مبكرة كما تعودت فى مقلب القمامة فشعرت بها جين فقامت هى الأخرى تلاعبها وتقبلها بشغف لتعوضها عن الشهور التى فقدتها فيها فارتدت ملابسها الأنيقة وخرجت للتنزه بحديقة الفيلا وقد نما عودها أكثر من السابق. بعد قليل سمعت النداء السحرى .. الخس اللوز .. أسرعت إلى الباب لتفاجأ بأن أباها قد مر من أمام الفيلا وأصبح أمام باب الفيلا المجاورة. خرجت من باب الحديقة مسرعة خلفه قائلة:

– آبا .. آبا .. التفت جهة الصوت فشاهد سعاد فتشبث بيده فى إفريز العربة الكارو وابتسم قائلا:

– الله أكبر.. والله نفسى أشوفك يا عم عفريت .. جالولى فى البلد إنك بتطلع للناس وجلت فى بالى أنا أولى بعفريت بنتى.. بس عفريت نضيف والخالق الناطح شبه المرحومة .. لكن أول مره أشوف عفريت يطلع بالنهار .. يلا .. عشان إنت عفريت سعاد وصغير زيها أنا حجبلك "وزة" (أحضر خساية صغيرة) .. اتفضل يا عم عفريت وجل لسعاد أبوكى وأمك وإخواتك بيحبوكى كتير.

– وقفت الطفلة تستمع لأبيها معتقدة أنه يداعبها. أقبلت نحوه – آبا .. بوسنى يا باا!! عاد الرجل للخلف متوترا خائفا.

- بسم الله الرحمن الرحيم .. إيه يا عم عفريت؟ .. إنتو حداكم بوس وحجات زى اللى حدانا ؟ أقبل عم نوبى فاستجار به عوف شاكيا له عفريت سعاد ابنته. ضحك الرجل قائلا:

- عفريت إيه يا راجل يا خُلل؟ .. دى بنتك سعاد ولاجيناها إمبارح .. بنتك عايشة يا عوف .. لم يستطع الرجل التماسك فسقط أرضا جالسا بجوار حماره باكيا وقد تجمع أبناء عمومة نوبى يهدؤون من روعه خاصة بعد أن ألقت سعاد بجسدها الصغير عليه وهى تقبله وتقبل دموعه المنهمرة .. تنبه أخيرا واستوعب المفاجأة فطلبت منه أن تعود معه فى المساء لتشاهد أمها وأخواتها ولكنه طلب منها تأجيل ذلك للغد حتى يمهد للأمر عند أمها بدلا من أن تصاب بمرض من شدة المفاجأة وخاصة أن الجميع يعلمون أنكِ توفيت .. أطاعت والدها بعد أن أخذت الوزة معها لتأكلها.

*****

عاد عوف قبل المساء إلى منزله منشرح الصدر وفى أحسن أحواله وبعد أن تناول طعامه طلب من ابنته منيرة أن تطلب أخواتها للحضور بالعشية "بعد العشاء" فحضرت كل من زينب وعزيزة وحامد من دورهم .. جلس يمازحهم كعادته وزوجته صامتة بعد أن أفقدها الحزن مواهبها فى الضجيج والخناق .. قال لهم:

- تحولوا إيه لو حد جال إن أختكم سعاد لسه صاحية وحية؟ تبادلوا النظرات وتحدث حامد:

- مش حنحول حاجه يا با لأنه كلام مش يعجل ويدخل العجل. الله يرحمها ماتت واندفنت. حية إزاى؟ تحدثت سنية:

- يظهر إن أبوكم رجع تانى للدخان زى أيام زمان ودخن جوزة فيها مخدرات ونافوخه ملخبط حبتين.

ضحك قائلا: اسمعوا اللى حُصل النهاردة. قص عليهم ما جرى بينه وبين سعاد ورغبتها فى أن تعود لزيارتهم وهو الذى أجل هذا للغد. قاطعوا حديثه غير مصدقين وهم فى دهشة والبعض استفسر عن حالتها حتى انتهى اللقاء مع أسرته وقد تيقنوا بأن شقيقتهم على قيد الحياة وتساءل حامد:

-أمال المدفونة تبجى مين؟ أجابه عوف:

-العلم عند الله. مساء اليوم التالى حضرت سعاد لزيارة أسرتها ولم يعلم بخبر عودتها سواهم فقط حيث حضرت وقت الظهيرة ولم يكن هناك بشر فى الشارع وقتها لارتفاع درجة الحرارة كما لم تخبر أسرتها أحدا من أهل القرية بحديث والدها ليس خوفا من الحسد ولكن اعتقادا بأنه مريض ويهلوس فلا داع لأن يعلم الناس أن عوف مخه ضرب وبيلخبط وبيقول إنه شاف بنته لمدى علمهم عن حبه الشديد لها كما قد يدفع هذا بالعمدة إلى إرساله إلى نقطة الشرطة ويهان ويضرب كما حدث له سابقا.

كان استقبال العائلة لها استقبالا طيبا ولكن إحدى الجارات شاهدت سعادا فأغمي عليها وأخرى هربت إلى منزلها بعد أن أطلقت عدة صرخات عالية النبرة وحضر الناس وتجمع أهل القرية ليعلموا ما سبب تلك الصرخات وأحدهم أسرع يخبر العمدة بأن "عوف" استطاع تحضير عفريت ابنته سعاد ويثير خوف الناس.

أرسل العمدة بإشارة الى النقطة والمركز لعمل اللازم حيث أن خفراءه وشيخهم يخشون التوجه لمنزل عوف وإلقاء القبض عليه خوفا من العفريت الذى معه. أسرع الناس فى البلدة بالاختباء وكل يعلم الآخر. عفريت سعاد بنت عوف. اجري يا جدع. البعض حوصر فى الحقول وتخوف من العودة ليلا من هذا العفريت وأسرع الجميع يغلقون دورهم والمحلات أغلقت أبوابها وحضرت ثلاث سيارات شرطة من المركز وغادرها أحد الضباط ممسكا بميكرفون صغير طالبا من عوف والعفريت تسليم أنفسهم.

اضطرب عوف ووضع يده على قفاه والتى تحولت إلى كالو من شدة ما ضرب عليه فى المركز والنقطة. خرج عوف رافعا يديه وبجواره ابنته والتى ما إن شاهدها بعض الجنود حتى أسرعوا بالهرب ووجد الضابطان نفسيهما بمفردهما أمام عوف والعفريت فاضطربا فهم غرباء عن المديرية ولا يعلمان بحكاية العفاريت إلا من الروايات. اضطرب الضابطان حيث قال أحدهم: يا عم عوف اسحب عفريتك وارجع وإحنا خلاص

ملناش دعوة بيك بينما سقط العمدة أرضا بمجرد أن شاهد عفريت سعاد. ثم نهض ينفض التراب عن عباءته قائلا:

- خلاص يا عوف. اصرف العفريت وحكتب لك نص فدان ولكن ضابط المركز نهره طالبا زيادتها إلى فدان فأقسم العمدة بشرف والده بأنه سيكتب له فدان.

حمل عوف ابنته على يده قائلا:

- يا عالم .. إمبارح مديرية الأمن فى المنصورة لجت بنتى مخطوفه مع شوية إصغار ورجعتها لى واللي ماتت واندفنت من ستة شهور دى معرفشى حاجة عنها. عفريت إيه وإنس إيه؟ .. دى بنتى جدامكم. حد فينا عمره شاف عفريت؟ ما عفريت غير بنى آدم.

تشجع البعض وخاصة الضباط وازدادت شجاعتهم بعودة رجالهم تباعا بعد أن شاهدوا من على بعد أنه لم يحدث شيء وبعد أن تأكد للجميع أن سعاد بنت عوف على قيد الحياة وعادت إلى بلدها وهنا صافح رجال الشرطة عوف على سلامة ابنته وُفتحت الأبواب وتدفق الناس لدى سماعهم الخبر السعيد والبعض أحضر مزاميره للاحتفال بعودة ابنة القرية إلى بيتها كما أقبلت صديقاتها وخاصة فاطمة وفكية وست أبوها للترحيب بصديقتهن .. أمضت البلدة أمسية رائعة عم فيها الفرح كل منازل القرية وأظهر العمدة كرمه وسخاءه بتوزيع

الحلوى مع وعد بذبح عجل فى بداية الشهر العربى يوزعه على فقراء البلدة بهذه المناسبة.

*****

عادت سعاد إلى فيلا "نيس" بعد عدة أيام قضتها بين أسرتها وصديقاتها شعرت خلالها بالفرحة والسعادة مع أهلها واستقبلتها فريدة فى الحجر الصحى وقامت بالواجب معها. ها هى سعاد قد عادت ترافق "ماما" وبابا" فى جولاتهما والتى أضيف إليها السفر إلى القاهرة والبقاء بها يومين احتفالا بالعيد الوطنى الفرنسى وشاهدت الاحتفال وهم ينشدون الأغانى الوطنية رافعين الكؤوس قائلين "فيفا لا فرانس" تحيا فرنسا وبعض المدعوين يحيون مصر "فيفا لا جيبت" ..

*****

على الجانب الآخر فى مقلب القمامة حيث تواجدت نقطة شرطة باستمرار بعد القبض على بريزة وتعهد أبو ركبة بإبلاغ قوات الأمن بأى شخص جديد يقبل عليهم خاصة أن الباقين أدلوا بأقوالهم بأنهم هم الذين هربوا من عائلاتهم تحت الضغط والقهر وإنهم يعلمون كل شيء عن أحوالهم بعكس سعاد التى كانت صغيرة جدا ولا تعلم شيئا ولا تستطيع الاعتماد على نفسها .. أسعدت كل تلك الإجراءات "جولنار" حيث تخلصت من بريزة الذى حاول الاعتداء عليها أكثر من مرة كما أن جابرا والمعلم تحاشيا المشاكل خاصة مع تواجد رجال

الشرطة فى المكان .. أيقنت حلنار بأن خطتـــها صـــائبة وأن تجمعهم واتحادهم هو الأساس.

*****

أيقنت السيدة جين بان سعاد استوعبت كل ما اخبرتها بـــه من مفردات اللغة ولهذا قررت أن تلحقها بمدرسة "نـــوتردام" لتعلم اللغة الفرنسية وحاولت مدام "دفريه" مـــديرة المدرســـة معارضة ذلك لأن سعاد اقترب عمرها مـــن الثمانيـــة أعـــوام ولكنها تراجعت أمام إصرار مدام جين .. صباح كل يوم ترافق سعاد "ماما" جين فى سيارتها وتذهب بها إلى المدرسة وتلتقـــى مع الأطفال هناك وجميعهم يمتازون بمستوى اجتماعي ومـــادى رفيع وانخرطت فى هذا السلك فاندمجت وتحولت للأفضل كما تراها جين ودوفان اللذان شعرا بمدى تقدم الفتاة رقيا ودراســـة وسلوكا. مضت الأيام بها مع تلك الأسرة الراقية التى قدمت يد العون والخير بدون عائد مادى سوى عائد معنوى هو التمتـــع بشعور الأمومة الذى كان طاغيا على السيدة جين وقد أشبعها وجود سعاد فتحسنت صحيا ونفسيا إلى أبعد مـــدى وهـــى تسمع كلمة "ماما" من طفلتها سعاد وهى تـــشاهد وتراقـــب نموها وتقدمها .. كل هذا انعكس عليها وعلى زوجها الـــذى شعر بأنه يحيا أحلي أيام حياته هانئا مع زوجـــة رقيقـــة تحبـــه وطفلته سعاد التى يبث من خلالها مشاعر الأبوة الفياضة الـــتى كان فى أشد الحاجة إليها فهو بطبعه عاطفى رقيـــق المـــشاعر يعشق الحب والموسيقى.

فى القرية عمت أسرهًا السعادة أيضا خاصة عندما كانت تحضر سعاد لزيارهم عدة ساعات فى نهار يوم الجمعة ومعها السائق الخاص بمسيو دوفان ثم تعود آخر النهار كما تحضر "ماما وبابا " فى بعض الزيارات وكل تلك الزيارات تحمل معها الخير من ملابس وأقمشة وأطعمة ومساعدات مادية فانعكس هذا على الأسرة فتحسنت الحالة الاقتصادية والاجتماعية لشقيقاهًا وسوف تتزوج شقيقتها منيرة بعد عدة أشهر واستطاع والدها أن يعد لها أثاثا كاملا بخلاف شقيقتيها اللتين كانت حالته المادية لا تسمح بأن يمدهن بما تحتاجانه. وقد علق بعض جيران سنية بأن ابنتها أصبحت سنيورة ومثل بنات الأكابر فى البندر .. وكان هذا حكما صحيحا لما شمل الطفلة من العناية وبما حباها الله من جمال طبيعى.

*****

ترك عوف ابنته وديعة لديهما دون طلبها كما أن الطفلة كبرت وبلغ عمرها عشرة أعوام وأصبحت صبية جميلة وكما يقول المثل الشعبى بأن خراط البنات "خرطها" فزاد طولها وأصبحت تجيد الحديث بالفرنسية وتتصرف كأنها من بنات الأسر الأرستقراطية وترافق أسرهًا لأماكن لم تكن تعلم عنها شيئا أو حتى تعلم بوجودها فى مصر. كما أن الفيلا بها الخادمة والطاهى والبواب والسائق والمال مُيسر ومتوفر والمدرسة الراقية بكل ما تحمله الكلمة من معان.

نهاية عام ١٩٦١ صدرت القوانين الاشـــتراكية فى مـــصر وأممت الشركات ومُصّرت البنوك وأصبح بنك بـــاركيلز هـــو بنك الإسكندرية وأبدل العـــاملين فى هـــذا البنـــك بعـــاملين وموظفين مصريين وزحفت البيروقراطية والإهمال إليه وتبـــدل العملاء من رجال الأعمال والأجانب إلى موظفى القطاع العام والعمال .. وبدلا من عملاء بنك يرتدون البـــدل والفـــساتين أصبح العملاء عمالا وفلاحين غـــير مهـــتمين بنظافتـــهم أو ملابسهم وعمت ساحة البنك الجلاليب والطواقى والتلافيـــع والبلغ والشباشب والأطفال الصغار يرضـــعون مـــن صـــدور أمهاتهم وساء الحديث وعمت القذارة والبلادة.

أخبرت إدارة البنك الرئيسى مسيو دوفان بأنه قـــد عُـــين رئيسا لفرع البنك فى العاصمة التونسية (تونس) وعليه استلام عمله خلال شهر..انقلبت الأحوال أمامه وأمام زوجته وما هو الطريق الأمثل أمامهما .. لم يكن هناك خيار أمامه فلابـــد أن ينفذ أمر النقل خلال هذا الشهر وإلا فُصل من البنك ولكن ما هو التصرف مع سعاد؟ .. هل سيصطحبها معه أو يتركهـــا .. كان من رأى سعاد أن معكما طالما سأحضر إلى مصر لزيـــارة عائلتى ولكنهما لم يأخذا كلامها على محمل الجد فهى مازالت صغيرة وبحكم القانون قاصر ولا تستطيع التصرف فى أمورهـــا فكان لابد من أخذ رأى والديها .. أرســـل دوفـــان بـــسائقه لإحضار الأب والأم مساء أحد الأيام .. جاءا على عجل خوفا من أن يكون الخواجة غير راغب فى بقاء سعاد لديه وعنـــدما

أخبرهما بما قررته إدارة البنك لم يمانعا فى أن تغادر ابنتهما مصر برفقة الزوجان إلى تونس وهذا مؤيد لحديث ابنتهما سعاد وقد اندهش الزوجان من قرار الأب والأم وكان لابد من تصريح أمام الجهات الرسمية وفيه يسمح لابنتهما بالسفر بمرافقة الزوجان إلى تونس .. استطاع مسيو دوفان إنهاء كل الإجراءات اللازمة فى مثل تلك الأحوال وواجه صعابا فى الفترة الأولى خوفا من أن يكون الوالدان قد باعا الطفلة إلى الأسرة الفرنسية ولكن عند قيام بعض المسئولين بمديرية أمن الدقهلية بالتحرى استيقنوا بأن تلك الأسرة ترعى الفتاة منذ ما يقرب من الأربعة أعوام وأن نية البيع أو التبنى غير واردة والدليل أن الفتاة مازالت تحمل اسم والدها عوف وتقوم بزيارتهم وهذا بشهادة الكثيرين.

استخرج جواز سفر لها يُسمح لها فيه بمرافقة السيدين دوفان وجين إلى خارج البلاد .. وحصلت على تأشيرة من السفارة التونسية .. فى خلال الشهر غادرت العائلة المنصورة بعد وداع حار مع العاملين لديهما وإعطائهم مكافأة سخية على حُسن عملهم طول الفترة الطويلة التى قضوها فى فيلتهم .. ودعت العائلة البسيطة ابنتهم وهم يشاهدونها سعيدة بهذا السفر ولم تكن خائفة أو مضطربة فالفترة التى قضتها معهما زادت من قوة جسور الحب بينهما برباط قوى ومتين وأصبحا أبا وأما حقيقيين.

*****

فى مدينة تونس انتهت سعاد من الدراسة بالمرحلة الابتدائية وبعدها بعدة أسابيع نقل مسيو دوفان إلى فرنسا للعمل بمدينة تولوز وهى موطنه وموطن زوجته .. هناك عاشوا فى منزلهم الجميل وهو عبارة عن فيلا جميلة تحيط بها الخضرة من كل جانب كما حضر لزيارتهم ابنهم مكسيم وزوجته وطفلته وسعدوا بهم كثيرا وأصبحوا عائلة كبيرة العدد. التحقت سعاد بإحدى المدارس بالمدينة وأصبحت مثل الفرنسيين قلبا وقالبا كما واظبت على زيارة عائلتها كل عام سواء بمفردها أو برفقة "ماما وبابا".

سعاد بالجامعة

مدينة تولوز وهى موطن "ماما وبابا" وهى تعد رابع أكـبر مدينة فرنسية وذات اقتصاد ضخم وبها شركة "إيـر بـاص" لصناعة طائرات الركوب العملاقة وهـى المنـافس القـوى للطائرات الأمريكية من طراز بيونج .. انتـهت سـعاد مـن الدراسة فى المرحلة الثانوية بتفوق وها هى تـستعد للالتحـاق بجامعة تولوز بين سعادة كل أفراد الأسرة وخاصة "ماما جين" التى شعرت أن بُعد نظرها فى الماضي والمستقبلِ للطفلة كان فى محله فقد أصبحت شابة يافعة تزداد جمالا وبهاءً يوما بعد يـوم وهى تنظر إليها فى غدوها ورواحها وسعادتها لا توصف بـأن تصبح هذه ابنتها رغم أنها تعلم بأنها لم تنجبها ولكـن هنـاك فارق كبير بين الإنجاب والتخلي عن الطفل وبين عدم الإنجاب ورعاية أى طفل ووضعه فى مكان وطريق صـالح ليـصبح ذا فائدة للمجتمع ولنفسه.

قارنت بين سعاد وصديقاتها وأخواتها فى عزبتـهم حينمـا كانت تصطحبها فى بعض زياراتها لعائلتها. هناك فارق كـبير وهذا دليل على حُسن الرعاية والاهتمام وأيضا دليل علـى أن هؤلاء القوم أصحاب حضارة وعلم وكما تقول بعض الكتب المتخصصة من علماء أفاضل بأنهم صدروا للعـالم الحـضارة والتقدم ولكن النسيان والإهمال على مدى العـصور الـسابقة طوي تلك الصفحات البيضاء المشرقة من جبينـهم وجـبين

البشرية ولكن بمجرد أن تزيل هذا الغبار وتوضح لهم الطريــق وتمد يد المساعدة الفعالة يكون هذا النتاج الرائع لبنى البشر أنهم مثل الذهب الذي ذهب ضياؤه وبهجته بسب الأتربــه وعــدم العناية والاهتمام .. لكن بمجرد أن تزيل كل تلــك العوامــل السيئة يعود براقا لامعا يخطف الأبصار والعقــول ويــصبح ذا فائدة كبرى.

دوفان هو الآخر بعد أن أنهي خدمته فى مجال البنوك وتقاعد لم يعد أمامه من نشاط وأمل للمستقبل سوى تلك الفتاة الــتى شاهدها طفلة صغيرة لا تعرف كلمة فرنسية واحدة ولا تعرف كيف تعود لعائلتها خاصة أثناء اختطافها وتذكر هذا الحيــوان الأليف بربارة التى ألهمها الرب إلى أن تذهب إلى الطفلة وتعود إليهم حاملة بمعلومات عن مكان اختطافها ولولا هذا لبقيــت ضائعة مع باقي من كانت تعيش معهم. وتساءل بدهشة: أيــن زملاء سجنها؟ أعتقد الآن أنهم من ذوى الإجرام وأنهم أصبحوا عالة على المجتمع الذي يعيشون بداخله يصدرون لــه المآســي وسوء الخلق. فهم بعيدون عن الرب والكتب السماوية ومبادئ الأخلاق بالإضافة الى العلم والرقى.

فى إحدى الليالى جلست سعاد فى حجرتها تتأملها ورغم أنها تعيش بها منذ أعوام طويلة بعد العودة من تونس إلا أنها شعرت بأنها جديدة عليها فى تلك الليلة بالذات وقد يكون السبب أن "بابا دوفان " اشترى لها حجرة نوم جديدة منذ أسبوع لتناسب حجمها بعد انتهائها من الدراسة الثانوية.

تنبهت إلى ما وصل إليه نموها فنهضت لتشاهد تضاريس جسدها الفاتن الممشوق وهى ترتدي بيجامة حرير ذات ألوان جميلة ووضعت يديها حول خصرها لتشاهد تقسيمات هذا الجسد الذي ما فتئت زميلاتها بالمدرسة الثانوية يعلن عن إعجابهن بها وبجمالها وروعته وهو خليط ما بين الشرق فى لون عينيها السوداوين وشعرها الطويل الأسود اللون والمسترسل على ظهرها كأنه شعر خيل بديع كما أخذت من الغرب أى فرنسا الرقى العام فى السلوك ووسائل النظافة والعناية بجسدها وبفكرها وعقلها أيضا.

شعرت بالحزن لأنها فى كل مرة حينما كانت تذهب إلى قريتها تشاهد صديقاتها فاطمة وفكية وست أبوها وهن ملتحفات برداء أسود وأرجلهن وأيديهن خشنة وسيئة المظهر هذا بالإضافة إلى انبعاج بطونهن من الإنجاب المبكر وعدم العناية بأنفسهن وقد تأكد لها هذا لأن أمها رغم جمالها وبياض بشرتها فقد تأثرت بأشعة الشمس والعمل فى الحقول والإنجاب المتتالى وعدم العناية.

تتساءل بدهشة: هل نحن نختلف عن هؤلاء الأجانب؟ أجابت: لا أعتقد هذا فأنا منهن وهن منى وقد يكون للحياة التى أعيشها وهى بعيدة كل البعد عن العمل الشاق المضنى سعيا وراء لقمة العيش التى يلهث كل من فى بلدتنا من أجلها ، ألم أشاهد أبى وهو يسير طول اليوم خلف عربته وحماره لبيع نبات الخس؟ ، لقد كان يقاسى من الحر صيفا والبرد شتاء وخاصة

من المياه التى كانت تبلل جسده وفى آخر اليوم يعود حاملا معه رزقه ورزقنا ، هل يستوي هذا مع "بابا" الذي كان يجلس فى مكتبه فى البنك بمدينة المنصورة وهو بكل المقاييس مكتب فخم وله من السعاة والفراشين الذين يقدمون له الخدمات ويرتدى ملابسه الأنيقة النظيفة المكواة بعناية ومن أجود الأنواع؟ .. إذن هناك فارق ضخم فى مستوى معيشتهم ومعيشتنا ، لقد وافق أبى على أن يسلمني منذ أكثر من أحد عشر عاما إلى "ماما" من أجل أن تحادثني وتلاعبني مثلى مثل بربارة ، آه بربارة هذا الحيوان الرائع والتى كانت تحضر إلى فى مقلب قمامة المنصورة لتشد من أزرى وأنا لا أعلم أين أنا وكيف أعود لمنزلي ، لقد قدمت لي خدمات جليلة وكانت مكافأتها أن تموت بسببي ، آه حبيبتي بربارة لن أنساك أبدا وأعدك الصديق العزيز الوفي الذي رحل مبكرا.

مشطت شعرها أمام المرآة وتذكرت فريدة زوجة البواب ، آه يا فريدة لقد سعدت منذ عامين بزيارتك فى منزلك بإحدى شقق المنصورة المتواضعة ورغم أن الشيب زحف إلى شعرك الجميل لكنك مازالت جميلة وخاصة ابتسامتك الرائعة لقد كبر أبناؤك والبعض منهم تزوج ، آه على ابتسامة فريدة ولكن أعز ابتسامة رأيتها فى حياتي هى ابتسامة عم نوبي والذى قابلته أيضا ونحن برفقة "ماما وبابا". لقد أصابه العجز وجلس مع زوجته العجوز أيضا فى داره بإحدى القرى القريبة من المنصورة ولكن مازالت ابتسامته عذبة صافية ولا أنسي أننى بمجرد أن شاهدته

لم يتعرفني. فلقد كبرت ونسي ملامح هذا الوجه الصغير الذي كان يعرفه ، لقد اندفعت إليه أحتضنه فربت على كتفي قائلا: أهلا بست العرايس أهلا بيكِ. إنتِ مين ؟ وعندما علم بأنني سعاد حاول النهوض ليرحبَ بي ولكن قدميه لم تساعداه فطلبت منه "ماما" أن يبقى حيث هو ثم نظر إليّ ثانية وأشار إليّ قائلا : تعالى هنا ، اجعدى ريحى ، الله عليكِ يا بنت عوف ، والله سنيورة وأمسك بيدى يقبلها بكل عطفَ وأنا أحاول أن أجذبها من يده الخشنة الضعيفة فيقول إنتِ تربيتى على إيدى ونظر إلى "ماما وبابا" مستفسرا. مش كده برضه يا سعادة البيه؟ وهما يؤكدان على صدق حديثه.

عاودتها الأفكار والذكريات وهى فى بلدتهم وقد شاهدت شقيقاتها الثلاث وهن محملات بأعباء الحياة ولهن من الأطفال العدد الكبير وتسأل نفسها: لماذا هذا الإنجاب الكثير ؟ هل نحن فى مسابقة ؟ ألا يكفى طفلان لكل عائلة؟ ابتسمت وهى تتذكر الأسطى عبده النجار صديق والدها الذي ظلت امرأته تلد حتى وصل عدد أبنائه إلى أحد عشر طفلا وطفلة والناس يسألونه: ليه كده يا أسطى عبده؟ كفاية خلفة. ابعد عن مرتك شوية. الولية خلاص معدش فيها حيل لخدمتكم؟ فيضحك من حديثهم مبتسما ويضع القلم الرصاص فى أذنه ويمسك بالشاكوش فى يده ليؤكد حديثه (الواد عوضين ابن عمى عبد العال مرته خلفت توأم ، يعنى هوه بيجيب بالجوز وأنا بجيب بالفرد ، حفضل أخلف لحد ما مرتى فتحية تجيبلى جوز زى

الواد عوضين ولا هوه أحسن منى؟ ولا أحسن منى؟ ما هى هاصت. الواد الرفيع اللى عامل زى عود الملوخية أحسن منى. أبدا حفضل على كده لحد ما أجيب جوز). ضحك منه أصدقاؤه على هذا التنافس.

جلست على سريرها وشاهدت بعض الصور التى التقطتها فى البلدة وهالها عدم النظافة والعناية سواء بأجسادهم أو بالحواري والمنازل وهى ما زالت تسأل نفسها:

– الميه موجودة والصابون والمقشات وكل شىء لزوم النظافة متوفر. ليه بنعمل كده ؟ يعنى إحنا دونا عن الناس مش بنحب النضافة؟ مش معقول وتعود بذاكرتها إلى القاهرة والإسكندرية وتشاهد الناس وهم أقرب إلى هؤلاء الذين تعيش بينهم من الرقة والعذوبة فى الحديث ولنظافتهم الشخصية بل إنها تتذكر أثناء زيارتها الأخيرة لمصر تقابلت مع بعض الفتيات المصريات فى الإسكندرية على بلاج المعمورة وشاهدت حسنهن وجمالهن الذي لا يقل عمن حولها فى نيس وتولوز ومرسيليا حتى باريس العاصمة ، بل إنها تجزم بأنهن أجمل من الفتيات هنا لما حباهن الله من خفة الروح والجاذبية وأنا فتاة مثلهن أقول ذلك.

تركت أفكارها وذكرياتها ونهضت وفتحت جهاز التلفزيون الذي أمامها وفوجئت بشىء يسرها. برنامج وثائقى عن مصر وحضارتها الفرعونية ومدى تقدم المصريين القدماء ومضى

المذيع فى ذكر تفاصيل هذا الرقى وهذا التقدم ثم انتقل بالصورة لعمل مقارنة بالأحفاد حاليا وأتى بمشاهد لأطفال حفاة فى الشوارع وآخرين ينامون ليلا بجوار الكورنيش أو تحت الكبارى فهم لا يعلمون شيئا عن عائلاتهم. إما لقطاء أو فقدوا من ذويهم. عادت بها الذاكرة سريعا إلى مقلب القمامة وتذكرت كل شيء وهى تشتم رائحة المقلب والذباب المتراكم فوق كل تلك التلال من القمامة التى عملت بها طول ستة أشهر. إنهم أمثال الذين كنت أعيش بينهم. هؤلاء المساكين وتذكرت القصص والحكايات التى كانت تروى أمامها من ضرب وإهانة وطرد من المترل إلى الشارع.

بعد أن أنهى دراستى لابد أن أعود إلى قريتى .. لا بل بعض القرى لأساعدهم فى تجنب تلك الأمراض الاجتماعية كما يجب علىّ أن أزور أصدقائى فى مقلب القمامة وأرعى حالتهم وأساعد من أستطيع مساعدته.

أقبلت ماما جين وهى مازالت سائرة فى أحلامها فشاهدتها وهى سعيدة ومنفعلة سواء بذكريات الوطن أو بما شعرت به من جمال وأنوثة أشبع غريزتها فكل إنسان يستمنى الأفضل. حادثتها:

– سعاد .. أراكِ اليوم سعيدة ما هو السبب؟

–"ماما" أنا كل يوم سعيدة. وقفت تنظر إلى المرآة تعيد معاينة مفاتنها. قبلتها جين واحتضنتها قائلة:

– سعاد إنت حلو كتير لازم فيه قصة حب؟! ابتسمت لهـــا دليلا على أن تكمل لها سعاد ما تريده منها ولكنها أجابتها:

– أبدا "ماما". لا توجد قصة حب لكنها السعادة ، فأنـــا سعيدة بكِ وب–"بابا" وبأخى مكسيم وزوجته لـــورا وابنتـــه صوفيا ، إننا أسرة سعيدة ولكن فى بعض الأحيان أشعر بالضيق لما ألاحظه من حال بلدتنا وبعض النـــاس الفقـــراء المحتـــاجين والأمراض تفترسهم ، هذا كل ما يقلقنى "ماما".

ربتت على خدها برقة الأم وأعادت تقبيلها قائلة:

– سعاد .. إنت ابنة كويس كتير ومحظوظ لكن إنت سعاد مش شفت ناس فقرا فى فرنسا .. أنت تعرف سعاد إن أحسن مدينة فى أوربا هى باريس ؟

– هذا معلوم على مستوى العالم وإن بعض زميلاتى مـــن دول أوربية أخرى تؤيدن ذلك.

– سعاد بعد اتنين يوم أروح معاك بـــاريس يـــوم احـــد وتشوف فقرا.. اندهشت سعاد.

– فقراء؟

– أيوه سعاد فقرا ، ومساكين زى بلد بتاع البابا عوف!!!

*****

فى عطلة نهاية الأسبوع استقلت العائلة السيارة متجهـــة إلى العاصمة باريس وأصبح هذا يشكل سعادة كبيرة لهـــم جميعـــا

خاصة الشابة الجميلة سعاد التي شعرت بالشباب والحيوية في هذه العاصمة الجميلة. فكلاهما يجمعهما الجمال والرقة والتطلع إلى المستقبل حيث باريس فى حالة من الشباب الدائم خاصة فى وسط المدينة وعلى ضفاف نهر السين وما حوله من منتزهات وحدائق وكورنيش رائع على ضفتي النهر والمراكب السياحية تمخر عبابه وهى ترنو إلى المشاهدين بكل معانى الجمال سواء فى صورها الجميلة الصنع والزخارف أو فيما تحمله من بشر باديا عليهم الصحة والجمال والسعادة وهم يمرحون ويرقصون فوق أسطحها بدون ضوضاء أو إزعاج بعيدا عن هموم العمل وكان للأسرة نصيب فى تلك النزهة حيث تناولوا طعام غدائهم على سطح إحداها وهم يشاهدون المرافقين والمرافقات أثناء رقصهم ولهوهم ومرحهم باديا عليهم من السعادة والمتعة.

قادت جين السيارة نظرا لحالة الضعف فى النظر الذى المصاب بها مسيو دوفان. اتجهوا إلى الحى اللاتينى وهو حى قديم ولكنه يجمع بعض الصعاليك الذين ينظرون للحياة بنظرة أخرى وهى الكسل وعدم العمل سواء سلوكا منهم أو لعدم توفر المقومات التي تساعدهم على إيجاد فرص عمل جيدة. غادروا السيارة بعد أن أوقفتها جين فى المكان المخصص لهذا وإلا ستسحبها قوات الشرطة المتواجدة فى كل مكان وهى على أهبة الاستعداد لهذا. شاهدت سعاد بعض الرجال والنسوة المتسكعين فى الحوارى والأزقة وهم يدخنون السجائر أو جلوسا على المقاهى المتواضعة أو وقوفا على نواصى الشوارع

انتظارا لتقبل الهبات والمساعدات من الآخرين فهم معروفــون بهيئتهم هذه بأنهم من المحتاجين للعون والمساعدة. اســتمروا فى سيرهم وهم يشاهدون الأبنية القديمة ولكن كل شـــىء كـــان يغلفه النظافة والعناية ساعدهم على هذا الطقس الأقل حـــرارة عن مصر كما ساعدت الأمطار شديدة الهطول من وقت لآخر على غسل الأبنية والشوارع بالإضافة إلى أن الرياح لا تحمـــل أتربة نظرا لانتشار الخضرة فى كل مكان.

أسفل أحد كبارى نهر السين شاهدت سعاد بعض العاطلين يرقدون أرضا يدخنون وحالتهم السيئة بادية علـــى مظهـــرهم سواء من ملابسهم القديمة أو نظافتهم الشخـــصية. مازالـــت تشاهد وتنظر بدهشة لهذا البلد الجميل فرنسا الذى يحوى بعض هؤلاء وهى التى عاشت السنين والأيام الطوال سواء فى تولـــوز أو أثناء بعض زياراتها للعاصمة وقضاء بعض الأوقـــات مـــع عائلتها و لم تشاهد تلك المناظر و لم تكن تعلم بأن هذه المدينـــة الساحرة والتى يطلقون عليها فى أوربا عاصمة النـــور والفـــن والجمال تحوى مثل هؤلاء.

لاحظت جين دهشة الفتاة وعلامات الاستفهام بادية علـــى ملامحها ولهذا قررت أن تمدها بالمساعدة دون أن توجه لهـــا اى سؤال .. سعاد .. أتندهشين مما تشاهدينه؟ حركـــت ســـعاد رأسها بما يعنى أنها غير مصدقة ما تراه. أجابتها جين .. ســـعاد فى كل دول العالم لابد من تواجد مثل هؤلاء الناس لأنه قانون البشر .. فنجد المتعلمين والمثقفين الذى يدفعون بنهضة البلـــد

وآخرين كسالى والله لم يعدهم لمثل هـــذا الرقـــى فقـــدراتهم محدودة.. سواء لقلة ذكائهم أو لكسلهم وإهمـــالهم وانتـــشارا المخدرات والجنس. نظرت سعاد إليها وقد عادت بذاكرتها إلى الوراء أكثر من اثني عشر عاما فى مقلب القمامة بالمنــصورة. جنس ومخدرات وقذارة وإهمال. كأنهم فى مصر اتفقـــوا مـــع المتواجدين هنا. نفس المواصفات الشخصية لكن مع اخـــتلاف الموقع الجغرافى والملابس واللغة ولكن عدا ذلـــك فالتقـــارب والتشابه واضح لدرجة غريبة. نظرت سعاد لأمها:

– أشاهد كل شيء ولكنك تقولين الجنس وأنا أعلم منـــذ حضورى إلى تولوز بأن الجنس هنا حر أى العلاقة بين رجـــل وامرأة فى إطار غير قانونى أو رسمى متوافر وبدون قيود مثـــل بلدنا ، إذن لماذا تضيفين هذه الكلمة لهم وتعدينها من تصرفاتهم المخالفة عن الآخرين؟

ضحكت جين وشاركها مسيو دوفان في سؤال صـــغيرتهم. ساروا قليلا حتى وصلوا إلى السور الحديدى المطل علـــى نهـــر السين واستندوا عليه وجين توضح لها:

–صغيرتى سعاد .. إن العلاقة بين الرجل والمرأة هنا مقننـــة مثل وطنك تماما ولابد من الزواج. مثلا أنـــا وبابـــا تزوجنـــا ومكسيم ولورا تزوجا. نفس الإجراءات. نتوجـــه للكنيـــسة ويقوم القس بكتابة وثيقة زواج. هذا هـــو الـــشيء الطبيعـــى للأسوياء هنا وهم الغالبية .. أما غير الأسوياء فتقوم علاقتـــهم

على غير ذلك مثل صداقة فى عمل أو الدراسة بين اثنين .. رجل وامرأة .. ثم تتطور إلى علاقة جسدية لفترة ما ثم يغلفها البرود والتجمد وسرعان ما تنتهى وكل طرف يبحث عن صديق جديد .. لكن علاقتهما رغم أنها مخالفة لتعاليم الكنيسة إلا أنها تكون مستترة وداخل المنازل والشقق ولا يجب الجهر بها علنا لأنه نوع من الحياء والخجل لديهما فهما مثقفان ومتعلمان ويتقلدان وظائف محترمة ولا يجب عليهما أن يصبحا مثل الآخرين. لكن من هم الآخرون؟ هؤلاء هم الذين شاهدناهم منذ قليل ينامون فى أنفاق المترو أو أسفل الكبارى أو بجوار الحوائط فى أطراف المدينة فهؤلاء لهم علاقتهم الجنسية الواضحة فى تلك الأماكن لا يستطيعون التستر إلا قليلا وهم لا يأبهون بالآخرين .. فهم يريدون طعاما ومخدرات وجنس ويقضون حياة الشباب هكذا وتجرى بهم الأيام ليجدوا أنفسهم قد سرقهم الزمن وأصبحوا عاجزين وأصابتهم الأمراض التى تنتقل إليهم عن طريق المخدرات والجنس المتبادل بين أكثر من شخص ثم النوم فى العراء فيجتمع عليهم هذا الثالوث البغيض فيهلكون ويكون مأواهم بيوت المسنين حتى يتوفاهم الله ويغادروا الحياة و لم يضيفوا شيئا بل كانوا عبئا على الآخرين.
سمعت سعاد وشاهدت وهى فى دهشة من تلك المعلومات الجديدة على أذنها وعينها .. ثم سألت أمها سؤالا يسمح به أسلوب الحياة فى هذا البلد المتطور. ماما ..

- معنى هذا أن أحسن علاقة بين الرجل والمرأة فى تلك الأنواع الثلاث التى ذكرتها هى الأولى وهى الرسمية والتى تتم فى الكنيسة على يد أحد القساوسة؟

- هذا صحيح سعاد. فتلك العلاقة الفاضلة تتمشى مع روح الدين المسيحى بل والإسلامى أيضا فكل المسلمين الذى عرفتهم فى مصر متزوجون رسميا على يد الشيخ .. سواء فقراء أو أغنياء.

قادت جين السيارة إلى حى "سين سان ديفينى" ومنطقة "كليشى سوبواه" وهو حى الفقراء من المهاجرين الأفارقة والجزائريين والمغاربة ولاحظوا مدى القذارة والإهمال وعدم اعتناء أجهزة الدولة الفرنسية أو عمدة باريس بهم .. القذارة هى السائدة والبطالة وتدخين المخدرات والمنازل البالية وانتشار المخدرات والسرقات والجنس .. إنها مثل مقلب قمامة المنصورة. انتقلت جين إلى منطقة أخرى وهى "مونت فريمى" وهى شبيهة بالمنطقة الأخرى نفس الإهمال وانتشار الفساد واللا مبالاة كما أن اقرب وسيلة مواصلات لتلك المناطق السكنية تبعد مسافة ثلاثة كيلومترات على الأقل وهو عبارة عن قطار وعلى المسافر أو الذى يحمل أشياء أن يسير تلك المسافة حتى مترله أو إلى القطار ومنهم كبار السن والأطفال والعجائز. نظرت سعاد إلى "ماما" ولسان حالها يقول هذا مثل ما كنت أعايشه لفترة ستة أشهر بعد اختطافى.

اليوم التالى وقد خلدت فيه سعاد إلى حجرتها ولاحقتها الأفكار التى تزاحمت على عقلها. إذن العلاقة الفاضلة كما قالت ماما هى الزواج الرسمى فى الكنيسة ولهذا يجب علـى أن أتزوج فى الكنيسة مثل الأخريات. أسعدها هذا وضحكت قائلة: إن هذا رائع للغاية .. عندما يحبنى شخص وأحبه سوف نذهب إلى الكنيسة ونتزوج مثل ماما وبابا ، لكننى للآن لم أعجب بأحد ولم أشاهد شابا أعجب بى رغم ثقتى بأني جميلة وجذابة. نهضت ووقفت أمام المرآة وعاينت تضاريس جسدها وهى أسعد ما يكون واسترجعت ما قيل لها من فتيات المدرسة أو فتيات الجوار لمنزلهم.

عصر اليوم التالى خرجت سعاد برفقة ماما يتنزهان قريبا من فيلتهم والطقس جميل ورائع فأفضت إلى أمها بما يعتمل فى تفكيرها. ماما حتى الآن لم يُقبل علىّ أحد من الشباب وأنا الأخرى لم أنجذب إلى أحد من الشباب الذى شاهدتهم وقابلتهم سواء أثناء التنزه أو خلال العلاقات الأسرية التى تجمعنا بهم ، ألا تدرين ما هو السبب فى ذلك؟ ابتسمت حين وهى تستمع لتلك الكلمات الرقيقة التى تخرج منها وغلفتها البراءة وذكرتها بالماضي البعيد لها وهى الشابة غضة الإيهاب أثناء دراستها بالجامعة.

– حبيبتى سعاد .. مازال أمامك الوقت للزواج وخاصة أنكِ مازالتِ تدرسين وهذا يختلف عن الفتيات اللآئى انتهين من دراستهنَ أو خلاف ما يحدث فى قريتكم حيث الزواج

المبكر هو سمة أهل الريف فى كل أرجاء العالم حتى فى فرنسا لأن الفتيات يخرجن للعمل مبكرا ويكتفين بالدراسة المتوسطة فلا لزوم للجامعة ولهذا لا تشاهدى فى الجامعة فتيات مقبلات على الزواج لكن بعد أو قبل انتهاء دراستك الجامعية بقليل سوف يندفع المعجبون إليك يطلبون ودك للاقتران بك وهنا يمكنك الاختيار ورغم أننى كنت أرغب فى أن نؤجل هذا إلى ما بعد التخرج من الجامعة لأننا عقدنا العزم أنا وبابا على أن تواصلى التعليم وتحصلى على درجة الماجستير لأنها سوف تساعدك على تقلد وظيفة أرفع من وظيفة الشهادة الجامعية الأولى.

أسعدها كلام ماما ولكنها أخبرتها بأنه سؤال عفوى ولا ينم عن رغبة مطلقة فى هذا الاتجاه فهى تريد المعرفة والعلم بالشىء. احتضنتها أمها وقبلتها أثناء سيرهما.

– لا غبار عليكِ فى هذا. فلكِ أن تسألى وتعلمى كل شىء يحيط بك فالمعرفة بالشىء أحسن من الجهل به فهذه المعرفة تساعدكِ مستقبلا فى اتخاذ الإجراءات والخطوات السليمة فى حياتك العملية والعائلية.

أعادت عليها سؤالا آخر: ماما .. فى حالة انتهائى من التعليم وتقدم لى شاب وافق هوائى ورغبتى وأشعر أنه المناسب لى سوف أفج نمجك أنتِ وبابا ونذهب للكنيسة ونعقد عقد زواجنا حتى نكون مثلكما.

شدت على يدها سعيدة بهذا مؤيدة تلك الرغبة. عادت ثانية وقالت لكننا فى مصر لا نذهب للزواج فى الكنيسة بل يحضر أحد الشيوخ ويزوج الشباب والفتيات فهل سأكون مثلهن فى مصر أو فى فرنسا.

توقفت جين عن السير. آسفة حبيبتى الصغيرة. سوف تتزوجين كما يتزوج الناس فى مصر. فأنت مسلمة ويجب اتباع نهج دينك وقومك ونحن لم نطلب منك فى أى يوم أن ترافقينا إلى الكنيسة يوم الآحاد أو فى أيام الأعياد لأن هذا مخالف لدينكم فأنت مسلمة كما قلت ولكن الشىء السلبى الذى قمت به هو أننا لم نوجهك لمسجد أو مركز إسلامى سواء فى تونس أو فى فرنسا ولهذا سوف أحدث بابا عن هذا الأمر حتى تعلمى كل شىء عن دينك فأنت مازلت أمانة ووديعة لدينا ويجب علينا أن نكون أمناء وأوفياء على تلك الوديعة حتى لا نغضب الرب. فهذه تعاليم المسيحية السمحة وأيضا هذا منصوص عليه فى دينكم وكنت أعلم من بعض صديقاتى فى مصر بأن كتابكم المقدس يحض على هذا وأن يتمسك كل شخص بدينه. هذا اتفاق جوهرى فى الديانتين أما من يريد أن يبدل ويغير دينه فهو حر وأنت تعلمين أن بلدنا تعبد بل وتعشق الحرية التى لا تضر ومنها حرية الديانة والعقيدة. فأنت مازلت صغيرة لكن بعد التحاقك بالجامعة يجب أن تعلمى وتدرسى علوم دينك. فلا يجب علينا الاهتمام بك فى كل شىء ونترك هذا الأمر ونهمله. فالعقيدة ركن هام من أركان حياة الإنسان

السوى فى أن يعلم عن الله كل شىء وكتابه المقدس الذى يأمره بأشياء وينهاه عن أشياء أخرى إنه قانون الرب فى الأرض حتى يحيا الناس بدون مشاكل ومن يخالف هذه التعليمات فهو آثم ولا ريب وأنتِ لا تعلمين تلك القوانين ولهذا فأول شىء سوف أنتبه له هو هذا الركن الهام الأساسى لحياتك. ولقد احتفظت باسمك كما هو وظل لقبك لوالدك عوف ولم نغيره أو نبدله واحتفظت أيضا باسمك وجنسيتك بالإضافة إلى الجنسية الفرنسية التى اكتسبتها بعد أن قدم دوفان أوراقك بأنه المسئول عنك وعن رعايتك. أعيد اعتذارى حبيبتى الصغيرة سعاد .. عادا إلى الفيلا بعد أن فتحت سعاد قلبها لأمها والأخرى فتحت نافذة هامة فى حياتها وهى الدين والعقيدة.

بعد تناول طعام العشاء جلس كلٌ من الزوجين يتحدثان فيما دار بين جين وبين سعاد من حوار واعترفا بأنهما أخطآ دون عمد فى عدم دفعها لمعرفة أمور دين الإسلام ووافقها دوفان الرأى عاقدا العزم على البحث عن شخص مسلم يوضح لابنته أمور دينها مقدما اعتذاره لزوجته بأن أمور الحياة سرقتهما من أن يصبحا أمناء على تلك الوديعة ولكننا سنحاول إصلاح ما سقط منا سهوا.

على مدار أسبوع كامل ودوفان يحاول العثور على أحد المسلمين دون جدوى فهداه تفكيره إلى السؤال فى مركز الشرطة بالمدينة حيث لديهم سجل للمهاجرين والمنتسبين للجنسية الفرنسية ، هناك لم يستطع أحد مساعدته حيث إن

الديانة لا تسجل للأشخاص المهاجرين أو المقيمين .. أخـــيرا وفى أحد المحلات المتطرفة فى المدينة شاهد أحد الرجال الملتحين وكانت معلوماته أثناء عمله فى كل من مصر وتونس بأن هؤلاء من رجال الدين المسلمين. ناقشه فى الأمر ولكن الرجل اعتذر بأنه لا يعرف شيئا عن الإسلام فهو هندى.

أخيرا توصل مسيو دوفان إلى المركز الإسلامى الذى يقـــع فى العاصمة الفرنسية باريس. شاهد الرجـــال وهـــم يـــؤدون عبادهم وتقابل مع بعضهم وقابل رئيس المركز الذى شرح لـــه المشكلة التى وقع بها وقد هون عليه الرجل الأمر وأخبره بأنـــه يمكن للفتاة الحضور للمركز فى أيام الأحد للحـــصول علـــى الدروس اللازمة لهذا الأمر ولكن دوفان أخبره أنهم يقطنون فى تولوز وابنته تدرس بجامعتها وهذا صعب عليها. قـــام رئـــيس المركز بتزويده بكتب إسلامية مُيسرة للمبتـــدئين فى دخـــول الديانة طالبا منه أن تقوم ابنته بدراستها وفهمهـــا وعليـــه أن يعاوده على فترات وفى كل مرة سيزوده بكتب أكثر تقدما فى مجال الدين حتى تتدرج ابنته فى علوم الدين الإسلامى خطـــوة خطوة كما زوده بكتاب المسلمين المقدس"القـــرآن الكـــريم" طالبا من ابنته محاولة حفظ بعض من أجزائه وقد ترجمت المعانى من العربية إلى الفرنسية وقام بتلك الترجمة بعض الفقهاء مـــن الجزائر التى حصلت على استقلالها من فرنسا منذ عدة أعـــوام خلت. شكره دوفان كثيرا واتفقا سويا أنـــه إذا قـــام بزيـــارة العاصمة فعليه الحضور للمركز لتزويده بما هو جديـــد لـــديهم

حيث تصل كل تلك الكتب المترجمة من جامعة الأزهر بمصر وهذه هى الجامعة الإسلامية الأولى فى العالم وعمرها يصل إلى الألف عام كما طلب منه إذا حضرت ابنته برفقته فلتحضر لنوجه لها بعض الأسئلة لمعرفة مدى التقدم الذى أحرزته حتى الآن وتزويدها ببعض النصائح التى يجب اتباعها لتسلك المسلك الصحيح فى تعلم أمور دينها. غادر دوفان المركز الإسلامى وهو فى أشد حالات السعادة.

عاد دوفان سريعا مسرورا إلى بلدته واجتمع فى المساء بزوجته وابنته وأخبرهما بكل ما قيل من رجل الدين المسلم وزود ابنته بكل الكتب التى أحضرها معه موضحا لها بأن هذا الكتاب للحفظ ويسمى "قرآن كريم". أسعد هذا الحديث كلا من الأم وابنتها وتسلمت الفتاة الكتب وصعدت بها إلى حجرتها لتفتح طلاسم تلك الكتب.

كانت أمامها فرصة طيبة فلم يحن موعد الدراسة بالفصل الدراسى الثانى بالجامعة ويمكنها أن تنهل من تلك الكتب. شعرت بسعادة غامرة وهى تقرأ القرآن الكريم فتذكرت أنها سمعت مثل تلك الكلمات خاصة أثناء العزاء فى وفاة أحد من أبناء البلدة أو أثناء دفن الموتى ودهشت متسائلة: ما هى العلاقة بين القرآن والموتى؟ لماذا لم تسمع تلك الكلمات التى استعادت ذاكرتها الصغيرة بعض قطوف منها فى الأفراح والزواج؟ لكنها لم تجد لسؤالها إجابة واضحة وهى تعود بذاكرتها لصديقاتها فى البلدة فاطمة وفكيه وست أبوها

متسائلة: أيحفظون الكثير من هذا القرآن؟ أعتقد هذا حيث يقيمن بين عائلاتهن المواظبات على الصلاة. تعود بذاكرتها ثانية. إنها تعلم من مشاهداتها وهى صغيرة بأن الصلاة للرجال والعجائز من النساء ، يجب عليها التعلم والاستفادة من تلك الكتب لتعلم أمور دينها كما أنه بعد عودتها أو أثناء زيارتها لقريتها سوف تقارن ما تعلمته بما لدى صديقاتها من معلومات عن الدين.

مضى على التحاق سعاد بالجامعة عدة أعوام وسارت سيرا حسنا فى دراستها وتذكرت أيامها الأولى فى مقلب القمامة. اقترب موعد انتهاء الدراسة الجامعية وازدادت جمالا ونموا سواء جسديا أو فكريا وعقليا وشعر والداها بأنهما حصدا من وراء ما أنفقوه من رعاية معنوية أو مادية فى صورة متعة النجاح والتوفيق وأنها طول تلك السنوات التى قاربت الستة عشر عاما تعيش معهما وتحادثهما بأحب الألقاب "ماما وبابا". لقد أدخلت الدفء والبهجة إلى قلوبهما الهرمة وهما ينظران إليها فرحين سعداء بما قدماه لها وللبشرية كإنسانة ناجحة ستقدم إلى وطنها الكثير سواء وطنها الأصلى أو المعنوى.

شعرت سعاد بمدى ما حققته و لم يكن فى إمكانها ولا فى إمكان أسرتها تحقيق هذا لولا وجود أسرتها الثانية الفرنسية فى حياتها ولهذا شعرت بمدى أهمية أن يتوافر العنصر الصالح من متعلمين قادرين ماديا ومعنويا ولديهم التفرغ للإقدام على العمل التطوعى للأخذ بيد المظلومين والمغتصبة حقوقهم فهذا

عنصر هام فى تطور الشعوب خاصة الشعوب النامية الفقيرة التى تحتاج للنمو بمعدلات أكبر حتى تستطيع تغطية فجوة التخلـــف مع الشعوب المتقدمة الراقية.

وضعت هذا نصب أعينها خاصة أنها شعرت بالاثنين معـــا ومن يكون أكفأ منها فى الشعور بحالة المضطهدين والمخطوفين أو المطرودين من ديارهم والتى لفظتـــهم عـــائلاتهم بـــسبب الأمراض الاجتماعية المنتشرة فى المجتمعات المتخلفـــة أو الـــتى ينقصها الوعى والثقافة والغطاء المادى.

قررت سعاد بعد تخرجها وتقدمها لنيل شهادة الماجستير أن يكون موضوع رسالتها فى ذات الحدث والتطرق إلى هذا الظلم البين وإلى الأسباب والمشاكل التى أدت لظهوره وما هى طرق علاجه وما النتائج المترتبة على إهماله سواء للمجتمع أو الأفراد أصحاب تلك المشاكل.

تقدمت سعاد إلى جامعتها للالتحاق بالدراسات العليـــا فى الموضوع السابق ذكره وكان عنوانه "أثر التفكك الأسرى على مستقبل الفرد والمجتمع" تحت شعار مشكلة الأبنـــاء المـــشردين بالشوارع. قبلت الجامعة موضوع الرسالة للدراسة وحـــصلت سعاد على منحة للقيام ببحثها وكان موقع البحث هو مـــصر. غادرت سعاد فرنسا متجهة إلى القاهرة تاركة "ماما وبابا" على وعد باللحاق بها بعد شهر من مغادرتها حيث كانت زوجـــة ابنهم مكسيم تنتظر مولودها الثانى فقررا التوجه إلى المدينة التى

يقيم بها مكسيم وزوجته وقضاء هذا الشهر لرعاية الزوجة وأطفالها كما أنهما كانا غير قادرين على تحمل بُعد سعاد عنهما.

*****

وصلت سعاد إلى بلدها وتقابلت مع أسرتها وأسعد هذا والديها عوف وسنية كما حضرت أخواتها المتزوجات مع أبنائهن وحضر أيضا شقيقها الأكبر مع زوجته وباقى أسرته خاصة أن ابنته الكبرى "رتيبة" تزوجت ولم يصل عمرها السادسة عشرة وهى حامل وعمر حملها ثلاثة أشهر وتسير أمام عمتها غير قادرة على مجابهة ظروف الحمل فى هذه السن المبكرة بالإضافة إلى ضعف صحتها الناتج عن سوء التغذية والزواج المتسرع.

أما عوف فكان يقاسى من ألم فى قدميه وهى خليط ما بين الروماتيزم وكبر السن وقد افتتح دكانا متواضعا فى مترل أحد أصدقائه بأن فتح إحدى حجرات المترل المطلة على الشارع لتصبح دكانا يبيع فيه الخضروات والفاكهة لأبناء الطبقة المتعلمة أو الموظفين من أبناء البلدة حتى يستطيع أن يغطى نفقات أسرته رغم أنه لم يتبق أحد من بناته لديه فكلهن تزوجن ولكن أصبح من المعتاد أن تحضر بناته إلى أمهن طالبات العون من لوازم المترل من أرز وسكر وزيت وسمن لمواجهة الطلبات المتزايدة

لأسرهن التي تزداد عددا وفقرا لما يمثله كثرة الإنجاب وبالتـــالى كثرة الأعباء المالية.

كل تلك العوامل لم تكن جديدة على سعاد فهى ابنة تلك الأسرة ومن تلك القرية وتأتى للزيارة كل عـــامين أو ثلاثـــة ولكنها بدون أن تدرى كانت تعقد المقارنة فى مخيلتها بين أبناء بلدتها وسلوكهم فى الزواج والإنجاب وبين المجتمـــع الفرنـــسى ورغم أنها فى كل زيارة كانت توضح لشقيقاتها مضار كثـــرة الأبناء إلا أنهن لم يأخذن كلامها مأخذ الجد وخاصة أزواجهن الذين اعترضوا على كلام سعاد بأنها خوجاية وبتكفر بنعمـــة ربنا اللى خلقنا علشان نعمر الأرض بالنسل وأن الرسول قـــال فى حديثه: تناكحوا تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة .. ويشيروا للزوجات .. ده كفر بنعمة ربنا!

شاهدت سعاد فى البلدة سوء حالة كثير من الأطفال رغـــم التقدم الاقتصادي الذى حدث على مستوى الوطن وخاصـــة الفلاحين من ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية لكن كل تلـــك القفزات فى الاقتصاد تلاشت وضاعت أمام ظـــاهرة التـــرف والبذخ فى الإنفاق المظهرى ما بين تلفزيون ملون بعدة أنظمـــة وجهاز فيديو ثم تطور إلى أطباق الإرسال التفلزيـــونى وكلـــها مصاريف إضافية لا يستطيع العامل أو الموظف البسيط تحملها ولكن المحاكاة والتقليد الأعمى طغى على كل شىء كما أنهـــا لاحظت أن أزواج شقيقاتها لا يقدمون لها الاحترام الواجـــب كشقيقة زوجاتهم حيث إنها الأصغر عمرا فشقيقتها تنطق اسمها

مجردا من أى لقب والزوج هو الآخر يرفع الكلفة بينها وبينه ويناديها بنفس الاسم ثم تطور الأمر إذ سمعت أحدهم يناديها باسم "بت يا سعاد" مثل ما ينادى زوجته.

غمرها الضيق من كل تلك التصرفات التى تبعد عن الذوق العام وهى مازالت تعانى من حالة عدم النظافة بالقرية والتى غادرتها منذ قرابة عشرين عاما .. فمازالت الأغنام والماعز والدواجن تتحرك فى كل مكان تاركة فضلاتها والذباب يملأ المكان نهارا أما ليلا فعذاب الناموس والبراغيث.

لم تستطع البقاء أكثر من ثلاثة أيام لما لاقته من ألم فى نومها وإستخدام دورة المياه والاستحمام رغم توفر كل شيء عصرى من الكهرباء والمياه النقية بمواسير فى بيوت الفلاحين لكن التوفر شيء والنظافة شيء آخر كما لم يسعدها ما رأته وسمعت عنه سواء من شقيقاتها المتزوجات أو صديقاتها فاطمة وفكية وست أبوها التى كانت كل واحدة منهن تسير وخلفها حبل من أطفالها وحالتهن الصحية مثل الأخريات من إهمال وقذارة ومن الحالة المادية المتردية.

غادرت قريتها بين استهجان الأهل وتدخل أزواج شقيقاتها المزارعين فى شئونها الشخصية ، استعادت ذاكرتها بعض ما سمعته وفكرت في أحاديث هؤلاء الرجال ومازال طنين كلماتهم يطن فى أذنيها:

-إنتي حُرمة خللى عندك شوية خشا "خجل" من عمايلك وامشى على سلو البلد. كل هذا قيل مباشرة بحديث حـــاد فى الألفاظ التى يستخدمها بعض الفلاحين لإثبـــات براعتـــهم فى التوبيخ والتقريع للآخرين و لم يراعوا أنها مستقلة وليست لهـــم عليها الرقابة أو الولاية وأنها مثقفة ومتعلمة وأنها ليست صغيرة ولها أب وأم مازالا على قيد الحياة وهم يعلمون هـــذا لكنـــهم يتذكرون أنها فتاة أو "حُرمة" ويجب أن تحصل على الفرمـــان الذكرى قبل التصرف وأنها ليست مثل الواد الـــشحات ابنـــه الذى قارب على الرابعة عشرة من عمره فهو رجل ويـــستطيع التصرف وفهم الأمور لكنها مسكينة كما قال أحدهم "حرمة" وهذا ما اكتشفته سعاد وهم يتحدثون وأن كبرى المصائب فى مصر أن الرجل ديك المجتمع وأصبحت باقى النـــساء أفـــراخ تخضع لهذا الديك حتى لو لم يكن يعرف كيف يعـــد أرقامـــا حسابية حتى الرقم عشرة وهكذا طرد الجهل والغباء الـــذكاء والعلم والثقافة الأنثوية وجعل عتاة الجاهلية يدلون بدلوهم وأى واحد من هؤلاء الجهلاء الأغبياء إذا ذهب إلى المركز تورم قفاه من جنود الشرطة وهم ليسوا أكثر منه ذكاء ومفهومية فهم فى ميزان واحد وميزان بائس لكن نجاح هؤلاء المتعجرفين لغويا فى أن يدفعوا بالأذكياء من بنات المجتمع إلى هامش الحياة والسبب أنهن "حُرمة" .. كل هذا استنادا لقول الرسول .. وأن النبى قال .. والله جل جلاله قال .. ولا تعرف من أين أتى هؤلاء بتلك الأقوال على لسان الله فى كتابه أو رسولنا الكريم فى أحاديثـــه.

ونظرا لجهلهم فهم يجلسون ليستمعوا لأمثالهم من العامة الذين نجحوا فى فك الخط وقراءة الجريدة ليبثوا فيهم تلك الأفكار والمعلومات الكاذبة. ألم يعلموا بأن أول سورة أنزلت على رسولنا الكريم يوم تلقى الوحى على يد جبريل عليه السلام وهي سورة العلق. تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)" صدقَ الله العظيم.)

هذا معناه أن الله أوصى بالعلم والتقدم والرقى والأخذ بالأسباب وأن الله لو أراد أن يتعلم جميع أبناء آدم لكان من السهل عليه أن نولد جميعا متعلمين مثقفين ونجيد اللغات والفيزياء وكل العلوم لكنه أراد أن يجاهد أبناء آدم فى الحياة حتى يخرج منهم العالم والفقيه والطبيب والمخترع وهكذا ...

شعرت سعاد بأن سبب المشاكل التى يواجهها المجتمع هى تسرب الأطفال فى الشوارع والأزقة وترك التعليم كل هذا عائد للأب. لأن الأب المتعجرف الجاهل هو أكبر مرض يواجه المجتمع ولهذا قررت أثناء القيام ببحثها أن تفتش عن تلك الحالات. ان هذا هو السبب الرئيسى فيما يقابله الأبناء والبنات من تشتت وضياع شرفهن ومستقبلهن.

توجهت إلى مدينتها الحبيبة المنصورة لتبدأ بحثهـــا مـــزودة بخطاب من جامعتها فى تولوز إلى رئيس جامعة المنصورة وهـــو من أحد العلماء الأفذاذ فى مجال التعليم وقد سخر لها الرجـــل كل الإمكانات للمساعدة فى إتمام بحثها بدءا من الاستراحة التى سوف تقيم بها إلى السيارة التى ستقلها أو الاتصال برجال أمن الدقهلية لتزويدها ببعض الرجال للتوجه معها أثناء عملـــها أو لتوجيهها إلى أماكن المشردين.

*****

قررت سعاد أن يبدأ بحثها بالاتصال بمن كانوا يرافقونها فى مقلب قمامة المنصورة وعاونها الرجال المرافقون لها من مباحث الدقهلية والذين يرتدون الملابس المدنية حتى لا يؤثر هذا علـــى العينات التى تقابلها كما استعانت ببعض المتخصصات فى مجال الخدمة الاجتماعية ليرافقنها فى أبحاثها وعلمـــت ســـعاد مـــن المساعدين لها بأن من كانوا معها منذ عشرين عامـــا تركـــوا مقلب القمامة وهم يقيمون الآن فى عزبة القرود حيث يقومون بالتسول ومعهم قِردة يتسولون بها ويقومون بالـــسطو علـــى السيارات وبعض المارة وخاصة النساء بخطف حقائب اليد.

رافقوها إلى العزبة وهناك تقابلت معهم و لم يتذكرها أحـــد منهم فى بادىء الأمر فلقد تغيرت كثيرا وأصبحت فتاة يانعـــة وملامحها وملابسها تدل على مستوى عال وبعد جهد جهيـــد تذكرها البعض خاصة بريزة الذى اختطفها وعوقب بـــالحبس

سبع سنوات وصنقر و"جلنار" وبعض الفتيات الأخريات وقد أصبحن سيدات ولهن أسر وأبناء .. سعدت بهم كثيرا كما أصابهم الفرح بعودة تلك الابنة الضالة إلى أسرتها وكيف تذكرتهم وعادت لزيارتهم وقد علمت بما قاموا به من إنشاء تلك العزبة.

*****

غادرتهم سعاد وهى حزينة على ما وصلوا إليه وأصبحوا مكروهين من جيرانهم وتسببوا فى كثير من الأذى بل وأصبحوا بؤرة فساد بين تلك العزب المسالمة ولقد أرجعت أسباب هذا الى التفكك الأسرى. فلو لم يتم طردهم من بين عائلاتهم ولو أن آباءهم وأمهاتهم أحسنوا رعايتهم لما وصلوا إلى تلك الحالة فلقد أضيروا وأضاروا الآخرين بتصدير تلك الأفكار السامة وتحويلها إلى أفعال مفزعة بين ربوع العزب ولهذا فقد قررت أن تعاود البحث عن الحالات المنتشرة فى المجتمع لترى ما هو الشيء الشائع والمنتشر بين المشردين أو الهاربين من ذويهم.. لابد أن هناك خللا ما فى تلك الأسر والعلاج يبدأ من داخلها وليس من أبنائها المطرودين. ساعدتها مديرية الأمن والشئون الاجتماعية بتقديم النماذج التى ترغب فى مقابلتها كما أنها اعتمدت على ارتياد الأزقة والشوارع والأرصفة والأنفاق ومحطات السكك الحديدية وخاصة فى أماكن تخزين عربات القطار وكل هذا بتوجيه من رجال الأمن كما قامت بزيارات للمساجين وخاصة سجن النساء لتشاهد على الواقع ما حدث

ولتعلم ما هى الدوافع والأسباب التى أدت إلى أن يخرج الإنسان عن تقاليد وعادات مجتمعه ويصبح شاذا مما يؤدى إلى هذا التفكك الأسرى الذى هو آفة خطيرة.

أسباب التشرد والانحلال

بدأت سعاد فى بحث عينات المجتمع بالاتجاه لزيارة سجن النساء فى مدينة القناطر الخيرية .. قابلها مدير السجن بترحاب حيث علم أنها قادمة لإجراء بحث هام ورؤسائه فى الوزارة طلبوا منه تقديم كل التسهيلات اللازمة للقيام ببحثها الاجتماعي. بعد أن التقت بالعديد من الحالات المؤلمة غيرت اتجاهها إلى سجن الرجال واستمعت إلى العديد من الحالات التى صبت فى نفس الاتجاه .. دونت كل تلك الحالات حتى تعد بحثها .. كان لابد لها أن تتجه إلى الأطفال أنفسهم وتدرس حالتهم لأنهم نبت لهذه العينات التى حصلت عليها حتى تكتمل دراستها وتخرج ببحثها بنتائج قيمة.

اتجهت إلى دور الأحداث سواء للبنين أو للبنات وهم الذين ارتكبوا جرائم قبل سن الثامنة عشرة فيودعوا بتلك الدور لأنهم أصغر عمرا من أن يودعوا بسجن الكبار. كانت تلك الدور تفرخ سموما لهؤلاء الذين يعيشون بين جدرانها ..فتنتشر الرذيلة وسوء الأخلاق والذى لم يفعل أو تعود على سلوك منحرف قبل التحاقه بتلك الدور أصبح يعتادها فالإشراف الحكومي عليها ضعيف وانتشار الفساد أسرع من انتشار الهواء بينهم، وأصبحوا غير نادمين على فعل أى شيء. فقد ضاع مستقبلهم وأصبحوا من أرباب السوابق ولن يجدوا لهم مكانا فى المجتمع بالطريق الرسمي والشرعي وأصبح مكانهم وعيشهم فى المجتمع

يعتمد على القوة والبطش خارج تلك الدور حيـــث تتواجـــد عصابات تنتظرهم سواء للتسول أو للسرقة.

*****

جلست سعاد فى مركز البحوث الجنائية والاجتماعية مـــع هذا الشاب الذى انضم إليها لمساعدتها فى أبحاثها والعمل أصبح شاقا ومضنٍ حيث يقومان بتحليل كل عينة على حدة وتجميع الحالات المتشابهة وعمل إحصاء لتعداد الحـــالات المنتـــشرة فى المجتمع والبحث عن الأسباب والحلول لها. كـــان واضـــحا أن السبب وراء انتشار ظاهرة الصبية والفتيات الـــصغيرات علـــى قارعة الطريق هو هذا التفكك الأسرى. فمن الطبيعي أن غياب الزوج عن زوجته فترة طويلة متصلة مع انعدام الرابطة الأسرية مع العائلات وقلة الدين والحياء أدت إلى الدفع بتلك الزوجات إلى الانحراف والسلوك المشين الذى انعكـــس علـــى المجتمـــع وانتشرت به المشاكل الكثيرة. فانحراف هؤلاء الرجال أو تلكم النسوة جعل المجتمع المصرى يتحمل سداد فـــاتورة انحـــرافهم وتحمل تبعاتها.

جلست سعاد مع زميلها. يعمل طبيبا للأمراض النفسية وهو شاب صغير السن و لم يتعد عمره التاسعة والعـــشرين يبحثـــان ويستخرجان النتائج حتى يصلا إلى الحلول التى تناسب تلـــك الأوضاع المأساوية. تحدثه:

-"يحيى" هل سمعت عن عزبة القرود؟ نظر إليها مندهشا.

-أيوه .. لكنى فى الحقيقة أندهش من فتاة راقية مثلك تطالع بعض الأخبار عن تلك العزبة المشؤمة التى جلبت على كل جيرانها المشاكل. إننا نتابع ما يقومون به من مشاكل مع جيرانهم ولا أعرف السبب من وراء ذلك فقد وصلت سمعتها إلى المجتمع.

ابتسمت سعاد ابتسامة رقيقة جعلته ينسى سؤالها ليتحدثا فى أمور أخرى تخصهم بعيدا عن العمل والوظيفة. يتقابلان يوميا ويعملان لأكثر من عشر ساعات. كان لوجود يحيى بجوار سعاد الأثر الطيب والفعال فى استخراج النتائج بعد تحليلها من متخصص ودارس. شعر يحيى بميل إلى الفتاة وهذا دفعه إلى زيادة الاهتمام بها مما أثر على قلبها الذى لم ينبض بحب حتى الآن نظرا لتربيتها الجادة مع "ماما وبابا" كما أن انشغالها بعائلتها فى قريتهم ومحاولة تحسين حالتهم بإمدادهم باحتياجاتهم حتى يرتقوا ويعيشوا أحسن وأفضل من السابق كان يضيع هباء تحت سوء تصرف شقيقاتها وأزواجهن بالمسارعة فى الإنجاب وكثرة الأبناء الذى التهم كل زيادة وعون منها حتى شعرت بأن معاونتها لهم لم تأت بنتيجة فعالة بل إنها توصلت إلى رأى بأن شقيقاتها يحصلن على تلك المعونة لإنجاب المزيد من الأبناء لتُملأ بهم الشوارع والطرقات وليصبحوا مثل الكثير من أبناء مصر كل اهتماهم الإنجاب لدرجة أن تعداد الشعب المصرى تضاعف فى خلال أربعين عاما وأصبحت كل سُبل التنمية وخططها التى تقوم بها

الحكومات المتعاقبة لا تأتى ثمارها من هذا الهوس للإنجاب بين الناس وخاصة بين الفقراء وقليلى الحظ فى التعلم.

أنهت سعاد أبحاثها على واقع المجتمع المصرى. لم تكن الصورة سوداء كما يتبادر إلى ذهن البعض ولكنها كانت مؤلمة ومن الممكن علاجها بكل جدية وحزم مع استخدام كل أجهزة الدولة لمقاومة تلك الظاهرة وعلاجها من جذورها. فلا يجب الاهتمام بإلقاء القبض على المنحرف منهم بعد سقوطه فى أيدى قوات الأمن بعد ارتكابه للخطأ أو الجرم لكن يجب علينا اتباع مبدأ الوقاية خير من العلاج. ما هو السبيل الأمثل لعلاج هؤلاء؟ إنهم نتاج للتفكك الأسرى وغير قادرين على علاج ما يقابلهم من مشاكل. ماذا تفعل الفتاة "سارة" والتى قابلتها منذ عشرين عاما بعد أن طردتها أمها من منزلها بدافع من زوجها ورفضتها خالتها كما لم يقبلها والدها وخرجت هائمة فى الطريق العام ، ماذا تفعل وهى صغيرة ولا حول لها ولا قوة؟

تعود بفكرها ثانية. لو أن تلك الفتاة الصغيرة عثرت على مركز لاستضافة أمثالها ودربوا وعُلموا ألم يكن من الممكن أن تصبح أما فاضلة تضيف إلى المجتمع المزيد من الدعم والتقدم وتربى أبناءها على قيم الفضيلة؟

ألم يكن مجتمع مقلب القمامة التى عاشت به لأكثر من ستة أشهر هو مأوى لأمثال هؤلاء؟

إذن لا نريد استفحال هذا الوباء الذى يكمن تحت الرماد وكل مسئول يسلم هذا الملف إلى الذى يليه دون حل قاطع وفى النهاية يدفع المجتمع الثمن غاليا. ألم أدفع أنا ثمن ذلك بخطفى لديهم طول تلك الفترة السابقة وبقيت معهم لا أتعلم شيئا ذا قيمة بل أسمع وأشاهد الانحراف ولو كان عمرى أكبر من ذلك لحدث لى مثل الذى حدث للأخريات اللاتى أهدرت كرامتهن واعتدى عليهن؟

ماذا ننتظر من أمثال هؤلاء؟ وماذا سيكونون عليه؟ لابد لهم من بث سمومهم فى المجتمع انتقاما لما حدث لهم ومحاولة إثبات وجودهم والعيش بداخله. هم غير محصنين بالعلم والخبرة فى مجال العمل ويشعرون بالحب فيما بينهم. هذا الحب الذى فقدوه بين الأهل ووصل بهم إلى تلك الأماكن. لو وجد كل طفل وطفلة الحنان والرعاية لما فرط فى أهله وعائلته. لابد من علاجهم والاهتمام بهم. فكما تنفق الدولة على قطاعات كبيرة فى مجال الخدمات من تعليم وصحة وأمن وصرف صحى وخلافة لابد من الاهتمام بتلك الشريحة. لابد أن أقدم دراستى للمسئولين بالقاهرة وأن أتجه للصحف ووسائل الإعلام لنشر ملخص دراستى والأسلوب الأمثل لعلاجها.

أخبرت سعاد زميلها يحيى الطبيب النفسى بأنها ستسافر إلى فرنسا لعرض نتائج دراستها على جامعتها ومناقشة رسالتها فى هذا المجال. أسعده هذا وأبدى رغبته فى أن يرافقها لتلك الزيارة وفرحت لذلك. اتفق الاثنان على ترتيب سفرهما سويا فهو

يريد مقابلة والديها والتعرف بهما. أسعدها هذا فهـــى تـــشعر بنظراته وقربه منها وهى التى كانت تمنى نفسها بشاب ترتبط به ليكونا أسرة سعيدة. أخبرته بأن عليه مقابلة أســـرتها الأصـــلية بالمنصورة. اندهش لهذا لاعتقاده بأنها من أسرة فرنسية ولكنها أخبرته بقصتها وبكل ما يخصها من معلومات. استمع الـــشاب لروايتها غير مصدق وقد تداخلت المعلومات برأسه وهو لا يعى ما هو أصل فتاته!

جلس الشاب منفردا فى أحد الأندية على شاطىء نهر النيل بالمنصورة يستعيد ما أخبرته به سعاد هذا الصباح. حاول هضم تلك المعلومات ، فهى ابنة لرجل من قرية بجوار المنصورة وهى من أسرة فقيرة بل لقد اختطفت على يد "بريزة" منذ عـــشرين عاما ومكثت مع هؤلاء القوم ستة أشهر فى أسوأ البقاع وهـــم الذين كونوا وأنشأوا عزبة القرود الذين يعيشون على التـــسول وخطف حقائب السيدات وسرقة الملابس المغسولة من المنازل وينتشر بينهم الفساد والانحلال كما ينتشر الطاعون .. مـــاذا أفعل؟ لقد أخبرت عائلتى بمعلومات مخالفة لما كنـــت أعتقـــده عنها، لقد اختلف كل شيء ، ما هو الحل والتـــصرف؟ إنهـــا معلومات مخالفة لما كنت أعتقد لكنى أعشقها وراغب بالارتباط بها وكانت صادقة معى ولم تخجل أو تتناســـى أصـــلها فهـــى سعيدة بأنها ابنة عوف بائع الخضروات المتجول بالمنصورة وهو رجل رقيق الحال كما وصفته لى .. آه يا ربى لقـــد تلبـــدت الغيوم فى سحب مستقبلى الاجتماعي والذى كنت أنظر إليـــه

بأنه مثل اليوم الساطع المضيء الصافي من أى شوائب .. ما هذا الحظ السيء؟ ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أستشير أحد أصدقائى فأنا أعد تلك المعلومات معيبة فى حقها وحقى لـــو قـــدر لى الارتباط بها فلن تكون مضيئة فى مستقبلى الأسرى.

*****

شعرت سعاد بأن يحيى متذبذب الفكر والعاطفة ويحتمل أنه قد عدل عن اقتراحه بسفره إلى فرنسا برفقتها كما سبق واتفقا على ذلك كما خالجها شعور بأنه قد أصبح باردا عاطفيا مـــن جهتها ولكنها لم تأبه لهذا فقد عودتها الأيـــام علـــى تحمـــل الصعاب وهى التى تحملت كل تلك الصعاب منذ كان عمرها سبعة أعوام. إنها لم تنس الأيام الأولى لعيشها فى فـــيلا "مامـــا وبابا" فى المنصورة فى نهاية عام ١٩٥٨وقد ابتعدت عن أسرتها وأصدقائها وبلدتها. لقد شعرت باختطافها قبـــل أن تختطـــف بالفعل على يد "بريزة" هذا الشخص الكريه من مؤسسي عزبة القرود ومازال حيا حتى الآن رغم كبر سنه.

إنني أشعر بأنه غاضب من الحقيقة ولذا فهو لا يستحق قلبي. لقد كافحت ونجحت وتفوقت ، أنا اشعر بأننى أفـــضل منـــه فرغم تلك الصعاب إلا أننى نجحت بينما هـــو ابـــن الأســـتاذ الجامعي والطبيب المشهور ووالدته هى الأخـــرى استـــشارية أمراض الكبد ، أين هؤلاء من أبي عوف المسكين وسنية أمـــى والذين يحيون بالقرية فى مجتمع متخلف وبأقل الإمكانات المادية

والصحية ولم ينالوا أى قدر من العلم؟ فإذا كان يحيى طبيب أمراض نفسية ناجحا فهو نبت من أرض وشجرة قوية فيجب أن يصبح صالحا ناجحا مثل عائلته ولكن أنا سعاد الطفلة المسكينة لهذه الأسرة التي تعيش تحت خط الفقر وفى مستوى اجتماعي أقل من أن يقال عنه إنه إنساني. لا يا عزيزي يحيى لن أكون ناكرة لأصلى وسأظل أفخر بأنى ابنة لتلك القرية ولأبى وأمى المساكين الذين ضحيا بى من أجل لقمة العيش. إننى أعلم شعورهما عندما أرسلوا بى إلى المنصورة لتلك العائلة الفرنسية ، وكما يقول البعض الآن بأن عوف وزوجته باعا ابنتهما سعاد مثل بيعهم للماعز والأغنام ، هذا صحيح ولكنهما يمتلكان قلبا وأحاسيس؟

لقد شعرت يوم افتراقي عن أبى فى أول يوم وهو باك حزين لتركي. ألم أكن أشاهده من خلف السور الحديدي للفيلا وهو يحييني ويلثمني بقبلاته من بين أعواد حديد هذا السور ويهديني (خسة صغيرة "وزة") وهو أسعد ما يكون؟ ألم ألاحظ دموعه وهو يتركني كل يوم بعد أن يقبلني والسور حاجز بيننا وعيناه دامعتان ناظرا إلى الجهة الأخرى؟ ألم تخبرني شقيقتي الكبرى عزيزة بما حدث لأبى يوم أن تركني فى هذه الفيلا وألقى القبض عليه وأرسله العمدة إلى النقطة ثم إلى المركز وأشبعوه إهانة وضربا حتى تورم قفاه وقدماه وكان يخدمهم طول عشرة أيام خلال التحقيق؟ ألم تخبرني ماذا حدث له ولأمها بعد نبأ العثور علي متوفاة فى النيل وعزوفه عن مقابلة الناس وقيام العمدة

بإرساله للنقطة والمركز بحجة البلاغ الكاذب وما حدث له فى المرة الأولى حدث له فى المرة الثانية؟ لماذا تحمل والدي كل هذا؟ أمن أجل لقمة العيش الصعبة ومن أجل أن ينفق على إخوتى؟ أنا أشعر بأن والديّ قد فرطا فى جزء من جسديهما من أجل باقى الجسد بالتمام مثلما يحدث أن يتبرع إنسان بكليته ليصرف ثمنها على أبنائه. إنه يتألم وهذا خطر على حياته ورغم هذا يفعله عن طيب خاطر من أجل باقى أبنائه. ماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل وهو يسير يوميا لأكثر من عشرين كيلو لبيع بضاعته وملابسه مهلهلة ومبتلة بمياه الخس فى عز برد الشتاء ويرتدى حذاء عسكريا مفتوحا وبدون رباط. ماذا يستطيع أن يفعل؟

شعرت أن أباها وأمها ظلما وضحيا بالكثير. انتابتها نوبة بكاء شديدة لم تعهدها منذ اليوم الذى غادرت فيه بيتها فى العزبة ونامت فى منزل الأسرة الفرنسية ثم الأيام التالية بعد اختطافها. تُحدث نفسها : لن أنسى أبى وأمى وليكن ما يكون ولن أتنكر لهما وسأظل وفية لعائلتي وبلدتي وكل ما هو قيم ونبيل فى المنصورة بل ومصر كلها ، لقد كانت أسرتى الجديدة رحيمة بى وقدمت لى كل ما تستطيع و لم تبخل على و لم تبدل اسمي و لم تغير هويتي و لم تغير دیانتي ، كل ما طلب منى أن أقدم لهم البنوة والحنان وهم قدموا لى الكثير. سأكون مثلهم وفية مخلصة وسأقدم كل ما أستطيع لخدمة بلدي وقريتي وسوف أفيد أكبر عدد مما تعلمته سواء فى مصر أو فى فرنسا.

مضى يومان على مصارحة سعاد لصديقها يحى بما يخص حياتها وعائلتها وأثناء ذلك هاجمه ألم نفسي وتمنى من الله أن لم يكن تقابلا أو تعلق بها. شعر أن حبها طغى عليه وآلمه كثيرا فقد وقع بين فكي الحب والهوى وبين الواقع الذى نبتت منه تلك الفتاة. شعر والده بما يعترى ابنه وفاتحه فيما يعتريه من ألم فاندفع الشاب يروى مأساته وأقبلت والدته وانضمت إلى هذا الاجتماع فهو الابن الأكبر لهما و لم يقابلا بعد مشاكل الحب والمصاهرة. استمع كل من الأب والأم بهدوء إلى ابنهما وهو يروى قصة حبه والمفاجأة التى لم يكن ينتظرها وبعد أن أنهى روايته والتى أثرت فى والديه لما يكابده الابن من شعور وضيق وهو الطبيب النفسى الذى لم يشفع له تخصصه فى أن يهرب من مثل تلك الحالات. إنها مشكلة المشاكل أعالج الآخرين ولكن مشكلتى لا أستطيع أن أعالجها بل أحتاج إلى عون الآخرين.

نظر إليه الأب بهدوئه الذى عرف عنه فى مجتمعه وقال له: لو أن هذه الفتاة ابنة لتلك الأسرة الفرنسية و لم تكن ابنة هذا الرجل الفقير أيسعدك هذا؟ أجابه الابن فعلا كان يسعدنى هذا وخاصة أن بداية تعارفنا بدأت على هذا الأساس. يجيبه الأب.. أنت حزين لما بلغك من معلومات أظلمت حياتك الوردية السابقة عنها؟ يخبره الابن بتأييد استنتاجه.

أوضح له الأب بأنه لم ير ويشاهد الفتاة و لم يعرف أسرتها ولكنه سعيد بتلك الإنسان الصادقة والتى لم تكذب وتتحمل

والتي لم تفاخر بما ليس في يدها فرغم أنها عاشت مع عائلتها المصرية الأصلية سبع سنوات لا تساعد أي إنسان في تعلم أي شيء لأن تلك الفترة معروفة في دراسة الطب والقانون بأن الإنسان وقتها لا يصبح مميزا ولا يستطيع الاعتماد على نفسه فإذا ذهب إلى شارع غير شارعه لا يعرف كيف يعود ثانية ورغم هذا المجتمع الفقير المتخلف ماديا واجتماعيا وثقافيا إلا أنها متمسكة ومعترفة به و لم تخجل منه و لم تتبرأ من أسرتها وهي فخورة بهذا. قاطعه الابن بأنها لم تقل لي هذا في بداية تعارفنا وأعتقد بأن هذا كان تغريرا بي. يجيبه الأب .. في بداية تعارفكما كان تعارف عمل وليس حبا وزواجا وبناء أسرة ولكنها عندما شعرت بأن علاقتكما تطورت لم تسر على نفس النهج السابق أرادت أن تكشف كل شيء أمامك وليس من المعقول عندما تقابل زميلة أو جارة أن تخبرك بكل ما يتعلق بها فلكل إنسان أسراره الخاصة مثلما أنت عليه فلك أسرارك وأنا وكل الناس هكذا. هل تعلم سعاد أن جدك (والدي) كان يعمل بائعا سريحا للجاز في القرى خلف عربة كارو بصهريج يجرها حمار؟ يجيبه: لا لم تعلم ولن أخبرها !! نظر الأب إلى ابنه قائلا له: إن سعاد أشجع منك .. أنت تخجل من جدك الذى أنجبني ورباني لأصبح أستاذا جامعيا وأنت تخجل منه رغم أنك تحمل اسمه وصفاته .. تخجل من الإنسان المكافح .. ابني يحيى.. أخبرك بكل ما أحمله لك من حب بأن تلك الفتاة أخلصت لأهلها أكثر منك وهي أشجع منك بمراحل.

كانت كلمات الأب ثقيلة فالابن يسأل ولا يستطيع الإجابة وإلا لما أوضح لوالده ما يفكر فيه وقد أصبحت أمامه مشكلة كبيرة لا يستطيع التصرف حيالها.. أما والدته الطبيبة المشهورة والاستشارية فكانت تستمع دون أن تتدخل فى حديث الأب لابنه وبعد أن أنهى الأب حواره مع الابن بتلك الطريقة التى أغضبت يحيى تحدثت لتقلل الأثر النفسى السيء عليه ..

يحيى لقد سمعت ما حدثت به والدك وأنا أرى أنك تتحدث وتتكلم فى موضوع هام وهو كيفية اختيار زوجة المستقبل ونحن لا نستطيع أن نكون أوصياء عليك فى اختيارك ولكن يجب عليك أن تعلم أن هناك أمورا هامة تحكم الاختيار وأنت تعلم أيضا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى اختيار الشاب لزوجته والتى ستكون أما لأبنائه.

ابنى يحيى .. هناك معايير هامة فى الاختيار وكما قال رسولنا الكريم . فاظفر بذات الدين تربت يداك. إذن فأنت تعلم أكثر منى ومن والدك بما هى المعايير التى تميز سعاد أمامك .. هل هى متفرنجة وتقلد الغرب فى السلوك السيء وتبتعد عن السلوك الحميد الذى هو منارة الخلق فى ديننا. قارن ووضح لنفسك وبناء على هذا يكون اختيارك .. لكن أن تضع مستوى عائلتها الاجتماعي والمادي أمامك فهذا ليس بنهج موفق لتقدير قيمة البشر وأنت تعلم أن لنا العديد من الصداقات بعائلات وزملاء لديهم من الفتيات الجميلات واللائي لم يتعلق قلبك بأى واحدة منهن وهن جميعا على خلق ولكن القلب وما يريد وإذا

كان ما يريده القلب متمشيا مع روح الإسلام والعادات والمبادئ التي تربينا عليها فهذا شيء عظيم.

استراح يحيى بعض الشيء من حديث أمه بعد حالة الضيق والتوتر التي لازمته بعد حديث والده حيث أشاد بما تتميز به سعاد وقلل من قيمة سلوكه.

يسألها .. أمي .. إنني أحب سعاد وأشعر بأنها فتاة جميلة وطبيعية وكأنها لم تغادر مصر وأنها متمسكة بدينها وعاداتها رغم أنها لم تؤد صلواتها إلا منذ عدة سنوات سابقة فلم تكن تعلم أى شيء عن الدين الإسلامى بحكم البعد عن أماكن تجمع المسلمين وبحكم صغر عمرها حينما انضمت إلى الأسرة الفرنسية وكنت سعيدا بها ومازلت ولكن يعتريني بعض الضيق عندما أتذكر أنك ووالدي ستتحدثان مع والدها الفقير وأمها الريفية ، ماذا سيكون عليه وضعنا العائلي والاجتماعي بين الأهل والأصدقاء؟

ابتسمت له وشعرت أن تربيتها لابنها مازالت متواصلة فهذا واجبها وهذا حقه عليها .. تجيبه : يحيى حبيبي .. لقد شاهدت وعاصرت جدك مصطفى والدي. أشار إليها بأنه مازال يتذكر جده وهو سعيد.. هل تتذكر ماذا كان عمله؟ يجيبها : إننى أتذكر أنه كان طبيبا بمركز صحة المنصورة وأتذكره وأنا طفل صغير والجميع يرحبون به وبي ويطلقون عليه اسم (باش مفتش الصحة) وصل وهو يستقل عربة وزارة الصحة وكان يأتى فى

بعض الأحوال لزيارتنا ويستقلها ومعه سائقه .. تربت علـــى ركبتيه سعيدة من حديثه .. إذن تذكرت جـــدك وأبى. هــل تذكر جدك بركات؟ نظر إلى والده قبل أن يجيب.

نعم أمي أتذكره جيدا فلقد عاش لعمر متأخر بل ومات وأنا فى بداية دراستى بكلية الطب .. تسأله: هل رأيت والدك كيف يتعامل معه؟ يجيب:

نعم أمى كان والدي يقبل يده فى الشارع بجوار عربة الجاز. تبتسم له .. هذا صحيح رحمه الله .. هل كنت تخجــل مــن جدك؟ صمت قليلا ثم تحدث بكلام بلا مدلول:

يعنى .. تعيد .. ماذا تعنى بكلمة يعنى؟ يجيبها:

لم أكن أذكره أمام زملائي مثلما كنـــت أذكـــر جـــدي مصطفى.. تسأله:

ولماذا لم تقتف أثر والدك فى احترام جدك؟ يجيبها:

لا أدرى. قد يكون السبب أن جدي بركات عندما كـــان يراني يسرع إلى ويقبلني ويشترى لى بعض الحلوى من أى محل ولهذا أصبحت مقابلتى له هى لغرض الحلوى فقط لكنى كنـــت أخجل من بعض الزملاء أن أقول هذا أمامهم بـــل إن احـــد الفراشين بالمدرسة الثانوي سألني إن كان عم بركـــات بتـــاع الجاز قريبا لى من عدمه وقد ضايقني هذا السؤال وهو يعلم بأن أبى طبيب وأستاذ بكلية الطب.

تسأله. لو أنت فى مكان جدك ولك ابن يخجل من عملــك الشريف ماذا يكون عليه شعورك؟ أجابها بضيق:

ماذا تقولين؟ إننى لن و لم أكن فى وضع جــدي بر كــات. تجيبه بتأكيد كلامها:

يجى كنت ستكون فى حالة جدك أو أقل بكثير!! انــدهش الشاب .. كيف هذا ؟ تجيبه لأنه لو لم يقم جدك بالإنفاق على أبيك لما نال حظه الذى بلغه من التعليم ولما استطاع أبــوك أن ينفق عليك ويعلمك .. لو اصطحب جدك أباك معه خلــف عربة الجاز لأصبح أبوك يبيع الجاز هو الآخر وكنت تــصحبه ولك عربة جاز مثل جدك .. هذا ما أريد أن أخبرك بــه وأن هذا الجد الذى كان يسير طول النهار ويبيع الجاز فى أمــاكن فقيرة أعطى ابنه فرصة لكي يتعلم وأن هذا الابن والذى هــو أبوك استغل تلك الفرصة وأصبح متفوقا وحافظ على كيــان الأسرة وأصبح بارا بوالده بل كان جدك يرســل بأصــدقائه وزملاء المهنة إلى والدك للكشف عليهم وعلاجهــم وأبــوك يقابلهم بكل احترام لأنهم أصدقاء والده الذى يعــزه ويجلــه ويكرمه ..إن جدك مصطفى الطبيب والذى كــان فى هــذا الوقت مشهورا فى مدينة المنصورة لأن عدد الأطباء كان قلــيلا لم يخجل أن يضع يده فى يد جدك بركات ورائحة الجاز تحيط بالمكان كما لم يخجل أبوك من أن يعرفنا بأن والده على قــدر حاله ويبيع الجاز بل لم يخجل وهو يعــرض علــيّ رغبتــه فى الاقتران بى وأنا مازلت طالبة بكلية الطب وهو مدرس مساعد

ويخبرني بكل فخر بان أباه يعمل بتجارة الجاز فى الشوارع والأزقة.

يسألها : ماما .. ألم تفكري كيف سيكون عليه وضعك أمام جدي مصطفى وأنتِ تخبرينه عن مهنة والد الشاب المتقدم إليكِ.. تجيبه:

فعلا اضطربت قليلا ولكنني فكرت بأن هذا الأب الفقير الذى استطاع تربية هذا الشاب وتعليمه لهو شيء رائع وأب يفخر به كل إنسان وخاصة أن خُلق وتفوق ابنه كان هو الأساس فى الاختيار ولهذا فكرت أن هذا الخلق نابع من البيت الذى تربى فيه وهما الأب والأم .. أفهمت الآن ؟

شكرهما يحيى وغادر حجرتهما بعد أن أزالا ضبابا كثيفا كان متراكما على فكره أثر عليه فجعله مشوشا. ثم اختلى بنفسه يحدثها:

ما المانع أن يكون والد زوجتي فقيرا؟ .. وما العيب فى الفقر؟.. لقد علمت بأن مصر قبل الثورة كان بها مجتمع النصف فى المائة من الأغنياء أما باقى المجتمع فكلهم من الفقراء أى إن حوالي تسعة وتسعين فى المائة من أبناء الشعب المصرى فقراء .. إذن ما المانع فى هذا؟ كما أن والدتي ذكرتني بالحديث الشريف .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تنكح المرأة لأربع .. لجمالها ولحسبها ولمالها ولدينها .. فاظفر بذات الدين تربت يداك" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من الواضح أن سعاد ذات دين وإذا لم تكـــن هكـــذا مـــا أخبرتنى بأصل عائلتها ومن منا يفكر بأن هذه الفتاة الجميلة التى تحمل الجنسية الفرنسية وتتحدث بها بطلاقة ومعها شهادة مـــن تلك البلد وتحضر للماجستير ولها عنوان هناك وأب وأم لهمـــا أسماء فرنسية من كان يفكر بأن تلك الفتاة هى ابنة رجل فقير لا يعرف عن العلم شيئا .. لقد كانت واضحة صادقة وهـــذا دليل على نبتها الطيب .. لقد كان رسولنا الكريم أميا لا يعرف القراءة ولكنه من معدن طيب اختاره الله واصطفاه ليكون نـــبى آخر الزمان.

ابتسم ابتسامة ذات مغزى وتنهد براحة كأنه عثـــر علـــى الخلاص والحل لمشكلته التى كانت تؤرقه.

حبيبتى سعاد .. الآن لم يعد هناك شيء أخـــشاه. فلـــتكن عائلتك رقيقة الحال وهم غالبية الـــشعب المـــصرى وكمـــا أوضحت لى والدتي بأن جدي لأبى كان فقيرا ويكافح من أجل تحسين مستوى أبنائه وهذا أبى وهو الابن الأكبر طبيب وأستاذ جامعي وعمى فوزي محام مشهور وعمى فؤاد عميد بـــالقوات المسلحة وعمتي رجاء باحثة بالمركز القومي للبحوث وعمـــتي الصغرى طبيبة أسنان. إذن لماذا هذا التهوين من الناس والتقليل من شأنهم بناء على حالتهم الاجتماعية أو المادية .. كما قالت والدتي لقد تشرف والدك بأن يصطحب والده معه إلى مـــترل جدك مصطفى الطبيب وفى مترله الفخم بإحـــدى عمـــارات المنصورة المطلة على النيل بملابس عادية وتغلب عليها رائحـــة

الجاز و لم يخش أو يخجل وعندما تأتي سعاد بنفس التـــصرف الذى سلكه أبي منذ ثلاثين عاما أنتقد تصرفها هـــذا وأبتعـــد عنها؟

باكر بإذن الله سوف أذهب للقائها مقدما كل تقدير لهـــا ولأسرتها معلنا لها عن حبي طالبا منها أن تحدد موعدا لزيارتهم برفقة عائلتي وليكن ما يكون وإن غدا لناظره قريب .. دلـــف إلى سريره يمني نفسه بغد سعيد يرنو إليها وترنو إليه ويـــسعد بلقائها وحلو حديثها البريء ورجاحة عقلها.

صباح اليوم التالي توجه يحيى إلى استراحة جامعة المنـــصورة وسأل المسئولين فى الاستراحة عن الأستاذة سعاد عوف فأخبره أحد الموظفين بأنها تركت الاستراحة منذ ساعتين متجهـــة إلى مطار القاهرة لتستقل طائرة شركة الخطوط الجوية الفرنـــسية "إير فرانس" المتجهة إلى باريس ولقد تركت له هذه الرســـالة. تسلم الرسالة حزينا لأنها سافرت دون أن يودعهـــا مندهـــشا لسرعة سفرها حيث إنه يعلم بأنها ستغادر المنصورة غدا وليس اليوم. جلس فى بهو الاستراحة يطالع رسالتها ..

*****

الزميل العزيز دكتور يحيى فريد.. تحية طيبة:

أغادر القاهرة صباح اليوم بعد أن وُفقت فى الحصول علـــى مكان فى الطائرة المتجهة إلى باريس لأننى قد انتهيت من أبحاثى بمساعدة الأوفياء أبناء بلدي وعلى رأسهم السيد رئيس جامعة

المنصورة ورجال أمن الدقهلية ولا أنسى أبدا مجهـــودك معـــى ومؤازرتك لى وسوف نظل أصدقاء وسوف أعود إلى مـــصر خلال أسبوعين بعد تقديم البحث إلى الجامعة ومناقشته .. أعود إلى وطني بعد حصولى على درجة الماجستير .. لك شـــكري وتقديري وأرجو أن أقابلك بعد عودتي لنرى ماذا ستكون عليه نتائج البحث وطرق علاج المشاكل التى توصلنا إليها سويا .. تحياتي إليك ودمت صديقا وزميلا وفيا..

غادر الاستراحة حزينا لما حدث من رد فعلها لتصرفه معها فى آخر لقاء بينهما مؤنبا نفسه بأنه كان أقل لطفا ومودة معها وهى صاحبة الذوق وحسن التعامل معه بل وتركت له رسالة تشكره فيها طالبة منه استمرار التعاون بينهما .. آه حبيبتى .. إنكِ راقية و لم تخلطي بين ما حدث من تصرف سيء معكِ وبين الزمالة والعمل .. عاد إلى منزله مهموما وجلس فى حجرته وقد أعياه سوء تصرفه عن إيجاد مخرج له وها هو ينتظر والديه كما كان يفعل وهو طفل صغير لكى يقدما له يد العون.. إن الآباء والأمهات لا نستغني عن خبراتهم ولكن لمن تقول؟ .. فنحن كشباب نشعر بأننا قد نضجنا وأننا فى غير حاجة لعون الوالدين.

لقد أخطأت ويجب عليّ أن أستفيد بخبراتهما وحبهما لأن تلك الخبرات والنصائح تصبح غالية لأن حبهما لأبنائهما لا يعوض. سعاد .. أعتذر للمرة الثانية .. لقد تربيت ونشأت وترعرعت بعيدا عن والديك ورغم هذا تقدرينهما وتذكرينهما ولا تهضمي حقهما وتتخلي عنهما .. فهى علاقة أب وأم أصيلة وليس علاقة أدبية رغم اعترافك بأن عائلتك الفرنسية لها الفضل الأول والأخير بعد الله عز وجل فيما وصلت إليه .. وكما قال أمير الشعراء يصف الأخلاق بين الناس ..

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بعد الظهر عاد الوالدان من عملهما مرهقين وقد أعد الطاهي الطعام وبعد أن استعدا لتناول الطعام بحضور الأبناء المتواجدين والبعض مازال بالجامعة لتلقى محاضراته شعر كلٌ منهما بأن يحيى مازال يعتريه حزن وكان هذا باديا على وجهه.. بعد الغداء جلس الأب والأم يتناولان الفاكهة فى فراندة شقتهم المطلة على النيل وطلبا من يحيى أن يلحق بهما .. بادره الأب .. ما هى آخر أخبارك؟ .. بعد أن تنهد وأطلق بعض الزفرات التى تعلن عما وصلت إليه حالته أخبرهما بما حدث صباح اليوم ومغادرة سعاد القاهرة عائدة إلى فرنسا والخطاب الذى تركته له.

عرض عليهما الخطاب وقرأه كلٌ منهما .. أكملت الأم حديث الابن .. ابنى يحيى يجب عليك أن تصطحب أباك مساء الخميس بعد غد وتذهبا لزيارة والدها والتعرف به .. هل لديك العنوان؟ .. نعم أمى فأنا أعلم كل البيانات عنها حيث أخبرتنى بكل المعلومات عن أسرتها سواء اسم القرية واسم والدها وأسماء إخوتها .. لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأخبرتنى بها .. وافق الأب زوجته على ما أبدته من رأى ..

يوم الخميس وبعد صلاة العصر قاد الدكتور فريد سيارته وبجواره ابنه يحيى متجهين إلى القرية فعبرا النيل من فوق كوبرى

طلخا وبعد أن سارا مسافة قليلة واتبعا الوصف التي زودت بها سعاد يحيى مع بعض الاستفسار كل بضعة كيلومترات للتأكد من الطريق. قطعا مسافة تزيد عن سبعة كيلومترات نظر الأب إلى ابنه يحادثه:

هل رأيت بنفسك كم قاسى هذا الأب المسكين ليقطع تلك المسافة كل يوم سيرا على الأقدام ذهابا وعودة بالإضافة إلى ما يقطعه داخل المدينة حتى يبيع بضاعته؟ أنا أشعر بشعور تلك الفتاة وقد أخبرتك أمك أمس الأول عن حالة أبي. كنت مثل سعاد وأشعر بما تشعر به وأبي يقطع كل تلك المسافات ورائحة الجاز حوله من كل مكان حتى وهو يتناول طعامه مهما اغتسل كانت تظل عالقة به. كنت أذاكر فى كتبي وأنا اسمع رنين الجرس الذي ينبه الناس بأن بائع الجاز عم بركات قادم وينادى عليه البعض. عم بركات .. عايز صفيحة جاز. فينظر إليهم قائلا حاضر يا ست هانم. يحمل أكثر من عشرين كيلو هي وزن الجاز حتى الدور الثالث أو الرابع ليبيع بضاعته نظير عدة مليمات يكسبها ، كنت أشعر بالأسى عليه وأريد ترك المدرسة حتى أساعده خاصة عندما يعود آخر اليوم منهك القوى ومتعب مما بذله طول اليوم وأمي تطيب من خاطره وتضع أمامه الطعام .. بقايا طعامنا أنا وأعمامك .. يسألها قبل أن يمد يده بكسرات الخبز المتبقية منا .. الولاد أكلوا يا عواطف؟ .. تبتسم له بكل سعادة .. الحمد لله .. أكلوا وحمدوا ربنا. تستدرك قائلة: معلشي يا أبو فريد .. اللحمة خلصت .. أصلي اشتريت ربع رطل لحمة نصهم دهنة علشان أعمل تقلية الأكل لكن العيال أكلوا كل حاجة .. يضحك من حديثها ويخبرها قائلا: تعرفي يا عواطف ، أنا شاعر إني أكلت

ديك رومي من كلامك الحلو .. ياه والله شبعت لما الولاد شبعوا وربنا يديهم الصحة وينجحهم يا رب .. قادر يا كريم. تؤمن أمي على دعائه .. يقبل علينا عارضا إحضار أى شيء من الخارج قبل أن يذهب لنومه .. نعتذر فلسنا فى احتياج لأى شيء لسبب واحد أنه لم يكن لديه المال لشراء بعض طلباتنا التي نريدها .. تخبره حدتك .. أعملك شاي ولا تنام بدرى علشان تستريح؟ يجيبها .. لا .. حروح أنام .. تعرض ثانية .. طيب .. شوية شاي تحلى بيهم بقك بعد أكلك.. يجيبها أنا بحلى بقى بطريقتي ويأخذ من كل واحد فينا قبلة من خده ويذهب لينام وأنا أشاهد عروق يده تنتفض مما يحمله كل يوم من الجاز لزبائنه كل فى مسكنه .. هذا ما كنت ألاحظه.. أرأيت لو أننى بعد أن تعلمت وذهبت أتزوج أمك بدون أن اصطحب والدي معى خجلا من عمله أو مظهره ترى ما يكون عليه حاله بعد كل ما شرحت لك ؟

نظر يحيى إلى أسفل مسلطا عينه على حذائه كأنه يجيب على والده بأننى لا أساوى هذا الحذاء وقد لمعت عيناه بدموع تريد أن تخرج من مقلتيها. ها قد وصلنا .. قالها الدكتور فريد لابنه الطبيب يحيى.

استفسر من أحد الفلاحين عن سكن عم عوف. بعد أن وضع الفلاح رأسه بداخل السيارة حتى لامست طاقيته رأس السائل الدكتور فريد.

-بتسأل على مين؟ يعيد الرجل:

-عم عوف بتاع الخس.

- هييه .. جصدك عوف أبو وزة؟ تحير الرجل فى إجابته:

- والله مش عارف أبو وزة أو أبو بطة .. المهم عوف بتاع الخس .. ما زال الفلاح واضعا رأسه فى داخل السيارة ووجهه ملاصق لوجه الدكتور فريد:

- أيوه مفيش غيره. إحنا محدناشى غير عوف أبو وزة .. أصله لمؤاخذه الناس فى البلد طلعوا عليه الاسم ده علشان كان بيبيع الوزة بتعريفة. اندهش الدكتور فريد. الوزة بتعريفة !! إزاى؟ دا الوزة تساويلها اليومين دوول عشرة جنيه. ضحك الفلاح وهو يؤكد للدكتور.

- بلاش بحلته "تريقه" يا بيه وزة إيه وبطة إيه أنا جصدى وزة الخسة يعنى خساية صغيرة وقد أضحك هذا كلٌّ من الأب والابن حيث اعتقد الدكتور فريد بأنه يستطيع شراء عدد كبير من الإوز بهذا السعر الرخيص .. طلب الدكتور فريد من هذا الفلاح أن يستقل معه السيارة حتى يمكنه الاستدلال على سكن عم عوف أبو وزة!!

سارت السيارة فى حواري القرية تتبعها سحابة من الأتربة وبعض الصبية سعداء بوجود ترمبيل جاى من البندر أمر المرافق السائق "الدكتور فريد":

- بس وجف هنا يا أسطي.. أيوه على إيدك .. مازال الفلاح قابعا فى داخل السيارة .. ينادى من داخلها .. يا عم عوف .. يا عم عوف .. انتبه عوف الذى كان يجلس على

دكة خشبية قديمة مائلة تريد السقوط به أرضا وهو فى سابع نومة ويرتدى جلبابا بلديا قديما وينتعل بلغة قديمة لا تعرف لونها ونصف قدمه خارج تلك البلغة وقد أصبحت فى لون الأرض.

– مين؟ الواد عجيبة. إيه يا وله اللى مركبك الكومبيل الحلو ده؟

– الأسطى واللي معاه بيسألوا عليك يظهر إنهم زباين .. نظر الدكتور فريد إلى المرافق له شاكرا مساعدته .. أقبل عوف.

– خير يا ساعات البيه .. أى خدمة؟ .. والنبي الخضار اللى حدايا مش ينفعكوا دانى بفكر أخده ولا مؤاخذة للبهايم .. أصله خَطب ونشف ممكن أبعت للواد دعبس أجيبلكو من عنده طلبكم.

–إحنا عايزين نكلمك على جنب ويا ريت نروح نزورك فى البيت. حرك عوف طاقيته إلى الخلف والتى تنسلت حوافها وتدلت منها بعض خيوطها وهرش فى مقدمة رأسه .. عايزين تروحوا معايا للدار .. وماله؟ .. يا ألف أهلا وسهلا. أشار إلى طفل فى العاشرة.

–وله يا إبراهيم .. خد يا وله .. إنت يا وله جاه خابط فى نافوخك. أقبل الصبي.

–عايز إيه يا سيدى؟ مسكه من كتفه ..

- وله .. طيارة على بيت ستك سنية وعرفها إن سيدك جاى ومعاه شوية أفنديات عليهم الجيمة .. فاهم يا وله؟

- حاضر يا سيدي طيارة. أسرع الطفل الذى كان واضعا عود حطب من نبات الذرة بين ساقيه وكأنما يمتطى حصانا وأسرع للهدف المرسل إليه. أشار عوف إلى أحد الباعة:

- وله يا برعى. أقبل الشاب.

- أيوه يا عم عوف.

- اجري يا وله بسرعة هات لجوز الأفنديات دوول سطلين خروب ساجع. أسرع الشاب بين رجاء الضيفين بألا يتعب نفسه فسوف يذهبان إلى المترل للجلوس سويا. اقترب عوف من السائق "الدكتور فريد" والذى يجهلهم حتى الآن. وأشار بيده اليمنى جهة رأسه موضحا لهم:

- على فكرة أنا نِور وأفهمها وهيا طايرة .. إنتم لازم جايين من حدا البت سعاد الست الدكتورة !! ابتسم الاثنان من جملة البت سعاد الست الدكتورة. أجابه يحيى..

- مظبوط يا عم عوف. ضحك الرجل قائلا:

- أما براوة عليك يا واد يا عوف. وأبدى دهشته قائلا:

- أمال الواد سليم أبو عمر بيحول عليا مفيش فرج بينك يا عوف وبين الحمير غير الديل! إخص عليك راجل عدم المفهومية والزكاوة !!! طلب منهما ترك السيارة فى هذا المكان

لأن منزلهم فى مكان ضيق لا يسع سوى الحمير وهـــى تحمـــل الغبيط المملوء بالسباخ. وافقاه الرأى ورافقاه إلى المترل ســـيرا على الأقدام. شاهد زوجته تقف على باب المترل وقد ارتـــدت جلبابا نظيفا والتحفت بطرحة سوداء واضعة حرف الطرحـــة على فمها لزوم الحشمة. عرفها بهما..

- الأفنديات من طرف المحروسة سعاد .. ابتسمت ســـنية لهما ابتسامة وضاءة قائلة.

-أهلا بالأفنديات .. شرفوتنا وشرفتوا الدار. أشارت إليهم بالدخول فأسرع عوف أمامهما مفسحا الطريق فشاهد بعـــض الماعز محاولة الاشتراك فى الترحيب بالضيفين فصرخ طالبـــا أن يفسحوا الطريق وقد تبين أن الماعز تفهم الرجل إذ انـــصاعت لأمره وأفسحت الطريق. وقف أمام كنبة بلدى مشيرا للضيفين بالجلوس. جلسا بينما جلس عوف على الكنبة المقابلة وهى أقل فى المستوى حيث لا توجد عليها شلتة منجدة مثل التى جلـــس عليها ضيفاه. يعرف زوجته بالضيفين.

- الأفندى من طرف سعاد. ثم سأله اسم الكريم إيه؟

- الدكتور فريد. رحب بهما بأن ربت على صدره بتلـــك العلامة التى تفيدهم بأنكم بقلبي. عرف زوجته بإعادة الاسم.

سى الدكتور جايب الشهرية من بنتنا سعاد واللي معاه ده.. الصبي بتاعه. ضحك الاثنان بعمق بينما اندهشت سنية!

- إزاى الكلام ده؟ .. ماهى بسلامتها سايبة الفلوس جبل ما تسافر بلاد بره.

انتبه عوف إلى ذلك. إى والله. نظر للضيفان بدهشة قائلا:

- ما هى البت سايبة لأمها الفلوس. أمال الأفندية جايين ليه؟ اعتدل الدكتور فريد فى جلسته وهو يجيبهم بقوله أنا الدكتور فريد. أشار إليه عوف.

- أيوه يا سى الدكتور. عرفنا إنك الدكتور وبسلامته يبجى الصبى بتاعك .. جصدى التمرجى .. مش كده برضه ولا أنا مخى على جدى؟

- يا عم عوف سيبنى أتكلم .. مش معقول ملاحق عليا كده .. اللى معايا ده يبقى ابنى يحيى وهو طبيب أيضا .. رحب عوف وزوجته بالضيفين ثانية. أكمل الدكتور فريد:

- الموضوع إن ابنى يحيى عايز يتقدم ويطلب إيد بنتك سعاد.. آدى كل الحكاية وهو عرفها من حوالى أربع تشهر .. قلنا نيجى ونتعرف عليك وتتعرف علينا ونشوف رأيكم إيه ؟

-والله يا سعادة البيه الحكاية دية عايزه تسألوا فيها الخوجاية مرت الخواجة .. سعاد عايشة معاهم من عمر ياما ومش معجول نتعدى على الراجل والولية يجولوا علينا إيه؟

نظر فريد لابنه وأكمل حديثه:

- بس سعاد فهمت يجى ابني إنك أبوها وأى حاجـــه زى كده تبقى معاك. أسعد عوف بهذا بينما فرحت ســـنية غايـــة الفرح وأطلقت عدة زغاريد أسعدت الجالسين وأقبـــل بعـــض النساء من الجيران كل منهن تسأل عن سبب تلك الزغاريـــد وقد امتلأت الحجرة بالقادمين رجالا ونساء ابتـــهاجا بتلـــك الأصوات التى تعبر عن معنى الفرح والـــسعادة وقـــام عـــوف بتعريف جيرانه بالضيفين:

- البهوات دوول دكاترة وقد نسى الرجل اسميهما.. بعـــد جلسة طويلة أرهقت الأب وابنه استطاعا أخـــيرا أن تـــصبح الجلسة عائلية ولكن بحضور حامد شقيقها الأكبر وشـــقيقاتها وأزواجهن وقد أشعرهم كل زوج أخت بأنه الحامي لحماهـــا والمدافع عنها وهو وكيل النيابة الذى يجب عليـــه اســـتجواب وفحص المتقدم لشقيقة زوجته. بدأت الأسئلة تندفع بدون قيود وبدون مراعاة:

- هيه والدكتور فين؟ يعنى إيه دكتور نفـــساوى؟ ويجيبـــه زوج أخت أخرى .. يعنى بيجولك يا مصيلحى إنه الـــدكتور والعياذ بالله بيعالج المجانين ويبعتهم المرستان .. أمال إيـــه؟ .. يعنى إن شاء الله حتكون نهايتك على إيده!! وآخر يـــسأل .. هيه والدكتور بيجبض كام فى الشهر؟ فلا يسمع إجابة .. هيه خايف من الحسد ولا تكون خايف من الحسد .. إنـــت حـــر وبخاطرك .. عن إذنكم وبدأ واحد يلى الآخر فى مغادرة الدار احتجاجا على ذلك.

بقى الضيفان الذى ضايقهما سلوك أزواج شقيقة سعاد لكن بحكم الخبرة علم الدكتور فريد عوايد أهل الريف ويعلم أن هذا نابعه الحب ليس إلا. أخيرا اتفق فريد مع عوف على تأجيل الموضوع حتى حضور سعاد وظهرت السعادة واضحة علي وجه والديها. غادر الأب وابنه الدار وكان فى وداعهم كلّ من عوف وسنية وابنه حامد حتى باب السيارة.

فى الطريق استفسر يحيى من والده عن انطباعه عن هؤلاء الناس وأجابه الأب بأهم مثل باقى المصريين الطيبين الذين لا يدارون شيئا ويصبح كل شيء واضح فى حديثهم وتصرفاهم.. كان الانطباع حسنا وعادا إلى شقتهما قريري العين والفؤاد.

استقبلت الأم الأخبار التى نقلها كلٌّ من الأب والابن عن تلك الزيارة بالسرور والارتياح وخاصة أهلا شاهدت أثر ذلك على وجه ابنها الذى غلفه هدوء تام ظللته أحلام السعادة للمستقبل المنشود مع رفيقة الحياة سعاد عوف.

وصلت سعاد إلى مدينة تولوز واستقبلتها عائلتها هناك بكل سعادة وشوق وحضر مكسيم وزوجته وابنتاه لاستقبال العمة سعاد والتى أحضرت لهم بعض الهدايا من مصر وخاصة مشغولات يدوية من خان الخليلي وبعض المصنوعات اليدوية من إنتاج الأسر المصرية التى بدأ نشاطها الإنتاجى المترلي خاصة فى مجال الملابس الخاصة بالسيدات ومنها بالطبع قمصان النوم ومالها من رقة وزخرفة والقماش المصرى الناعم الملمس على أجساد النساء وخاصة ملابس الأطفال ..

بعد مُضى يومان حددت إدارة الكلية التى تدرس بها سعاد اسم رئيس القسم الدكتور موليه موعدا لعرض بحثها عن أثر التفكك الأسرى على الفرد والمجتمع .. تقابلت مع لفيف من الأساتذة وقدمت لكل واحد منهم نسخة لبحثها الذى استمر فى مصر أربعة أشهر بينما بدأته قبل هذا فى تولوز ومرسيليا ونيس والعاصمة باريس .. كان بحثا شاملا وخاصة عن مصر والأسباب التى أدت إلى ذلك وطرق العلاج الناجحة لمثل تلك الحالات .. تحدد موعد المناقشة بعد أسبوع حتى يتسنى لأساتذها الاطلاع على الأبحاث وتناول نقاطه المختلفة لمناقشتها فيه .. مضى أسبوع وها هي سعاد فى القاعة المخصصة لمناقشة بحثها وحضر بالإضافة إلى أسرتها الفرنسية بعض الصحفيين والإعلاميين الفرنسيين لتغطية هذه المشكلة العالمية التى تؤرق جمعيات حقوق الإنسان وهيئة "اليونيسيف" التابعة للأمم المتحدة والمتخصصة بأمور الطفولة فى العالم .. استمرت المناقشة أكثر من وقتها المعتاد والمحدد فى مثل تلك الأحوال وكان من الواضح جودة بحثها لما تسمعه من كل أستاذ مستفسرا عن إحدى النقاط وهى تجيبه فيمتدح الإجابة.. أخيرا استقرت اللجنة على منح سعاد درجة الماجستير بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف وثناء استثنائي على مجهودها الذى قامت به وسط مجموعات من الخارجين على القانون ..

فى الفيلا تلقت سعاد مكالمة تليفونية من إحدى القنوات التلفزيونية لتحديد لقاء معها يبث على الهواء لعرض أهم نقاط

بحثها على الجمهور الفرنسي والأوربى حيث إن تلك القناة تبث على القمر الصناعي للدول الأوربية المشتركة فى السوق الموحدة بينهم قبل إنشاء الاتحاد الأوربى .. تواصل الحديث مع معدة البرنامج بينما "ماما وبابا" ينظران إليها بكل سعادة وهما يتذكرانها منذ عشرين عاما وهى طفلة حزينة لفراق الأهل وتعاودهم فترة اختطافها والتى كادت أن تودى بحياة أمها "جين" ثم تذكرا نموها العقلي والجسدي وهنا تقترب جين من زوجها دوفان تحدثه.

أعتقد دوفان أنه آن الأوان لأن ترتبط سعاد بشاب يسعدها ويسعدنا وتنجب لنا الكثير من الأبناء مثل مكسيم .. لقد توقفت زوجة مكسيم عن الإنجاب وأنا لا أشعر بالحياة إلا بوجود الأطفال .. إن وجود الأطفال يخبرني بأنهم صغار ويحتاجون الزمن والوقت للنمو وأنا راغبة أن أكون بجوارهم لهذا النمو وأطالعهم وهم ويكبرون ويتطورون وهذا يدفع بى إلى مزيد من الحيوية فأنا قريبة من نباتات يانعة تريد النمو فأكتسب هذا منهم وأسير على نهجهم بدلا من الركون أنا وأنت تحت وطأة العمر والعجز وتردى حالتنا الصحية من حين لآخر ..

نعم حبيبتي جين .. أؤيد تلك الأفكار ولا نريد أن نقع فى الخطأ غير المقصود والذى وقعنا فيه قبل ذلك بترك الفتاة بعيدة عن دينها فترة وكنت أشعر بضيق وحزن وألم لهذا وشعرت فى قراره نفسي بأننى ارتكبت خطأ فادحا معها وما كان يجب

على أن أفعل هذا رغم أن هذا حدث سهوا وبدون قصد ولكن ما لا أقبله على ابني مكسيم وهو فى مثل عمرها وحالتـــها لا أقبله على الآخرين ونحن من بلد ابتدعت حرية الرأى وحقوق الإنسان وعدم التفرقة بين ديانة وأخرى.

عطلة نهاية الأسبوع الثالث لوجود سعاد فى فرنـــسا وقـــد تخلفت عن موعد سفرها إلى مصر لإنهاء ما بدأته وهو البحث عن جذور المشكلة ووضع الحلول لها وتنفيذها فهى لم تقم بـــه لغرض الحصول على الشهادة والعمل بها كمدرســـة بالجامعـــة لكن كان هدفها الأكبر والتى عانت وعاشت من أجله هو هذا المجتمع .. ظهرت سعاد على شاشة البرنامج التلفزيونى بجمالهـــا الساحر وغالبية المشاهدين سواء من فرنسا أو مـــن خارجهـــا تشاهد البرنامج نظرا للتنويه عنه قبل يومين وإعطاء نبذة حـــتى يجتمع أكبر عدد لمشاهدته وخاصة المهـــتمين بتلـــك الأمـــور الاجتماعية ..

أثناء حديث سعاد كانت تعرض بعض لقطات لهؤلاء الناس سواء رجالا أو نساء أو أطفالا من الجنسين لحالتـــهم ونفـــور المجتمع منهم وخاصة أقرباؤهم وطردهم فى الشارع والـــتخلص منهم مثل أى إنسان أنهى سيجارته وألقى بعقبها على قارعـــة الطريق تدوسها الأقدام وتغلفها الأوحال .. كانـــت الـــصورة عاملا مساعدا خاصة أنها التقطت فيلما تسجيليا قـــصيرا عـــن الأطفال الأسوياء بالمجتمع وهم فى مدارسهم وظهر مدى العناية

بهم ومقارنة بهؤلاء المساكين الذين تلفهم القـذارة والإهمـال ويهاجمون الناس أو التسول.

كانت المقارنة واضحة خاصة أنها تطرقت إلى عزبة القـرود بعد أن أعدت بعض الصور عنهم وتحدثت عن مدى الإجـرام الذى وصلوا إليه .. تنبه المجتمع بأنـه إذا لم ننتبـه لمـشكلة المشردين فى الشوارع سوف تزداد أعداد التجمعات المماثلـة لعزبة القرود ..

أحدث بث البرنامج صدى على المـستوى الأوروبى بـل وعقدت الجمعية الوطنية الفرنسية اجتماعا للتعليق على رسـالة الماجستير التى نالت عنها سعاد درجتها العلمية وعن حـديثها التلفزيوني وكل هذا كان مؤيدا بالصور وطالبوا بحضور رئيس القسم الذى منحها الدرجة العلمية وأثنوا عليه وعلى زملائـه وعلى الطالبة صاحبة البحث طالبين من الحكومة الفرنسية زيادة الدعم لدول العالم الثالث لعلاج هذا الموضـوع وأن يكـون الاستاذ دكتور موليه هو المشرف على توزيع ومتابعـة تنفيـذ إعانة الحكومة. أبلغ موليه سعاد بهذا الخبر الذى أسعدها طالبـا منها الاستعداد لمرافقته إلى مصر لمقابلـة المـسئولين فى وزارتي الشئون الاجتماعية والداخلية ومحافظة الدقهلية صاحبة التجربة الرائدة فى بحث سعاد وابلغها بأن السفارة الفرنسية فى مـصر أبلغت المسئولين المصريين بهذا الأمر الصادر من مكتب رئـيس الوزراء الفرنسي ..

قبل مضى أسبوع اتصل موليه بسعاد ليخبرها بأن تستعد بعد باكر لمرافقته إلى القاهرة للبدا فورا فى تنفيذ أولى مراحل الإصلاح والتى تضمنتها رسالة الماجستير. أصبحت الأضواء مسلطة عليها وهى ترافق تلك الشخصية العلمية والوظيفية الهامة فى الحكومة الفرنسية والتى كانت تربطها بمصر صلات صداقة قوية .. تقابلا مع المسئولين المصريين والتى كانت تؤرق مضاجعهم تلك المشكلة ويعلموا طريقة العلاج ولكن لا يستطيعون توفير الميزانية لهذا المشروع وقد استفحلت المشكلة لدرجة أن وزارة الداخلية أرسلت بالعديد من التقارير التى تنبىء بخطورة هؤلاء فى المستقبل محذرة من تفشى وباء مماثل لما حدث فى عزبة القرود. أصبحت سعاد شخصية محورية فى برامج التلفزيون المصرى وتكالب عليها المعدون والمخرجون للقيام بأحاديث معها وتطوع البعض لعرض سيرتها الذاتية وأنها ابنة المسيو دوفان الفرنسي واعتنقت سعاد الإسلام بعد حضورها لمصر ووقوعها فى حب شاب على هضبة الأهرام وما بين سحر النيل وأساطير الأجداد فى الأهرام بدأت قصة حبها الرقيقة القوية ولهذا قررت العودة لمصر لتقابل هذا الحبيب كما أفردت صفحات المجتمع بعض مقالات لهذا الغرض والبعض أفاض فى مستوى سعاد الأسرى وعائلتها التى تصل فى نهاية شجرة العائلة للملك لويس التاسع ونابليون بونابرت!

قبل حضور سعاد إلى القاهرة اتصل بها يحيى مهنئا على حصولها على درجتها العلمية وأخبرها بزيارة أسرتها فى القرية

وسعادته هو ووالده بهم وقد أثلج هذا قلبها الأبيض الـــذى لم ينبض بحب شاب من قبل وأغدقت عليه شكرها وثناءها طالبة منه انتظارها فى اليوم والساعة وموعد الرحلة التى حددتها له فى الاتصال التليفوني .. جلس عوف فى الحارة وهى من الحواري المغلقة والتى بها منزلان أو ثلاثة ومقفولة من نهايتها .. جلـــس عوف على حصيرة وأمامه تلفزيون الأسطى "عبده بلف" وهو صاحب ورشة لنفخ الكاوتش وإصلاحه بعد أن من الله عليـــه بقرشين أحضرهما من دول الخليج كما أحضر معه الرجل مـــن رحلته هذه تلفزيون ملون وأبى على نفسه إلا أن يشاركه أهل الحارة متعته بالفرجة والمشاهدة .. وضع الرجل التليفزيون على (كنبة نورج قديم) والناس تشاهد أحاديث سعاد بينما عـــوف ضاحكا قائلا : الله .. جابوا الكلام الحلو ده عن البت منين؟

جموع المشاهدين تشاهد سعاد وهم فى غبطة فرحين بابنـــة قريتهم وهم يسألون عوف:

-إلا جولي يا عوف .. مين اسم الله عليه جريبكم اللى اسمه "لوس" وينفجر بعض طلاب المدارس ضاحكين ويـــصححون الاسم بأنه لويس ملك فرنسا .. يصفق الناس سعداء بأن عوف جريب الخواجة لوس ملك فرنسا .. والبعض يسأل ..

-لكن إزاى يا عوف الراجل ده جريبك وإنت جاعد هنـــا بعيد عنه؟ .. يا شيخ خد مرتك وعيالك وروح حداهم. يجيبه أحدهم:

بأن "عوف" ولد هنا ولأن جده الخواجة لوس قبض عليـــه وسجن فى دار (أبو لجمه) "لقمان"!! فى المنـــصورة وبعـــدين الراجل جال حجكم عليا ومعنتش حاجى أحاربكم تانى وجال علشان تعرفوا إنى بحبكم حجوز منكم .. تعرفوا أجوز مين؟ .. الجموع تسأل .. مين يا ترى؟ يجيبهم :

البت نفيسه العمشة اللى كانت فى الوقت ده مجوزة الـــواد فاروج النتن غفير العمدة.

-النسوة .. ياه .. يعنى ستك تبجى نفيسة يا عوف؟

تطبيق الإصلاح

فى القاهرة توالى اجتماع كل من دكتور موليه ومساعدته سعاد عوف بالمسئولين المصريين الذين كانوا سعداء بتلك المنحة التى تقدمها الحكومة الفرنسية لمجتمع الشاردين من عائلاتهم ولم تكن المنحة نقدية بل كانت عينية وستتولى سعاد الإشراف على تنفيذها .. رحب المسئولون الذين تقابلوا مع كل من موليه وسعاد بذلك مقدمين لهما كل الدعم سواء المعنوي أو من المعلومات واستعدت أجهزة الدولة لتنفيذ تلك الأفكار التى أحضرها معه مسيو موليه وهى بالطبع واردة فى دراسة سعاد التى نالت عنها شهادة الماجستير .. تدور أفكار المنحة بصورة مختصرة عن برنامج الدعم المقدم من الحكومة الفرنسية الذى يحدد إنشاء مجتمع للصبية والفتيات المنتشرين فى الشوارع والذى يطلق عليهم المجتمع ووسائل الاعلام بأطفال الشوارع بالطريقة الآتية:

مبنى لإيواء وإعاشة لكل نوع .. أى مكان للفتيات ومكان آخر للصبية .. تشرف عليه وزارة الشئون الاجتماعية كما يقدم الدعم الدينى له كل من الأزهر الشريف والكنيسة الأرثوزكسية فى مصر بشرح الخطايا التى يحتمل قد ارتكبوها فى الفترة الماضية من حياتهم فى ظلام المجتمع وهى بالطبع ضد الدين وتعليمات الله سبحانه وتعالى .. توجيه ثقافي وأدبى من أساتذة متخصصين .. علاج نفسي واجتماعي .. تدريب على

الأعمال التى سيقومون بها لينخرطوا فى سلك المجتمع المنتج والعامل.

الوجهة الأولى كانت بمحافظة الدقهلية موطن البحث والتى نشأت بها عزبة القرود من بين أوحال مقلب القمامة واللقطاء والخارجين على القانون .. وقد حدد محافظ الإقليم المنطقة الشرقية ليبدأ بها المشروع حيث بها مساحة من الأرض البور والتى لم تعد صالحة للزراعة لكثرة الأملاح بها وتنفيذا لسياسة الدولة بعدم الاعتداء على الأراضى الزراعية.

تم تجميع أكبر عدد من البائسين المنتشرين فى الشوارع والأزقة بمعرفة رجال الأمن وحددت مدرستان لكل جنس مدرسة للإقامة والإعاشة المؤقتة حتى يتم الانتهاء من الإنشاءات.. نظم لهم البرنامج التدريبي الذى تبنته سعاد عوف.. وأعدت فصولا لهم .. كما تم علاج جراحهم ونظافتهم مما علق بهم من قاذورات أثناء تواجدهم بالشارع وكانت سعاد تتذكر كل هذا عندما تعود من قريتها فتقوم فريدة زوجة الطاهى بنفس تلك الأعمال ولأنها جربت وشاهدت فكانت هى الأقدر على ملاحظة تلك الأشياء وتتبعها.

تأكد المشرفون على المدرستين أن جميع الأولاد والبنات لديهم أصبحوا أحسن حالا كما شعر أصحاب المشكلة أيضا بذلك .. فهم غير مطاردين وينامون فى أماكن نظيفة ويجدون

الرعاية الصحية والاجتماعية كما كان لتدخل رجال الدين أثر فعال فى الهدوء النفسى لهؤلاء المعذبين من حالات التوتر الـــتى صاحبتهم قبل ذلك وأدت إلى إلقائهم فى عرض الطريق.

*****

أثناء ذلك ناقش مجلس الشعب مشروعا بقانون لعلاج تلك المشكلة وتنص أحد بنوده على عدّ أولياء أمور هؤلاء المتسربين من داخل الأسر إلى الشارع شركاء فى تلك الجريمة ويقـــدموا للمحاكمة طالما لم يبلغ عمر أحد من هؤلاء الثامنة عشرة وعلى ولى الأمر الإبلاغ عن أى طفل أو طفلة هرب مـــن منزلـــه أو المدرسة كما ينص القانون على أن يقوم رجال الأمـــن بجمـــع هؤلاء وتقديمهم إلى أماكن تنتشر فى جميع محافظات الجمهورية لعلاجهم صحيا مثل ما تم فى المشروع الفرنسي رغـــم أنـــه لم تظهر نتائجه بعد ولكن كان من الملاحظ أن مدينة المنصورة بل المحافظة كلها قد شعرت باختفاء هؤلاء المشردين من الأمـــاكن الموبوءة والتى كانوا يلجأون إليها كما شـــدد القـــانون علـــى عقوبات التسول والالتفاف حول التشريع باستخدام هؤلاء فى أغراض أخرى وأن تقوم الأجهزة المسئولة بإبلاغ الأسر ببيانات عن أبنائهم أو بناهم المتغيبين حتى يطمئنوا عليهم ..

*****

كل شيء كان يسير حسب الخطة وها هى سعاد وزميلـــها يحيى يتقابلان كثيرا وقد ربط الحب والتفاهم بين قلبيهما ووافق

مسيو موليه على انضمام يحيى إلى المشروع كمسئول ومشرف على العلاج الطبي النفسى لهؤلاء المشردين.

تقابلا كثيرا وحدثت زيارات متبادلة .. قامت سعاد بزيارة منزل أسرة يحيى وتعرفت بهم وتعرفوا بها وخاصة أم يحيى التى سرت منها كثيرا وقد رافقها يحيى عدة مرات إلى بلدتها وجلس يتناول طعامه مع والديها بطريقتهم المعتادة وشاهد سعاد وهى تتعامل بهدوء وبدون توتر مع أسرتها وباقي الجيران وخاصة صديقاتها فاطمة وفكية وست أبوها. تحدد موعد الزواج وإقامة الاحتفال وقد وافق كلٌ من سعاد ويحيى على إقامة حفلين .. الأول بالعزبة لأسرتها وأهل العزبة .. والثاني بالنادي الرياضي بالمنصورة ويحضره أصدقاؤهم ومنهم مسيو موليه وزملاء والديه بالجامعة وبالطبع أخبرت سعاد والديها الشرفيين فى فرنسا بكل تلك التطورات والتى أسعدتهما لكن مسيو "دوفان" كان يمر بظروف صحية حرجة و لم تشأ أمها جين أن تخبرها وتقلل من فرحتها. عُقد القران فى المسجد الكبير بمدينة المنصورة وحضره عدد كبير من الأصدقاء للعائلتين وكان الطبل والزمر هو الفاتحة لهذا كما اصطفت السيارات أمام النادي وبجوارها الركايب "الحمير" التى أتت بها عائلة سعاد ومرافقوهم كما حضر عمدة أبو سيف هذا الفرح.

أصبحت سعاد ويحيى زوجين وفى المساء اتجها برفقة الركايب إلى القرية حيث أقيم هناك احتفال فى منطقة "الجرن" وهى منطقة متسعة بالقرية يقوم المزارعون بجمع محصول القمح

بها لدرسه وتدريته لفصل الحب عن التبن وتعبئته فى هذا المكان الفسيح وحضرت الغوازى بالصاجات وأعد شـربات الـورد الأحمر ووزع الملبس والشكولاتة وكان هذا وقت موسم الربيع وأشجار الجميز تنتج الكثير وجمعوا منه ووزع علـى الـبعض خاصة الأغراب الذى أعجبتهم هذه الفاكهة المستوردة !!

انتهت السهرة وعاد الجميع إلى أماكنهم كما عادت سعاد إلى فيلتها السابقة التى كانت تقيم بها مع "ماما جـين وبابـا دوفان" بعد أن انتهت من إجراء بعض الإصـلاحات لعـدم رعايتها تلك الفترة الطويلة وستصبح عش الزوجية للعروسين.. صباح اليوم التالي استيقظت سعاد أكثر نشاطا وحيوية وهـى سعيدة بسهرة الأمس رغم ما بها من سلبيات مـن اخـتلاف الأمزجة والطباع فهم أهلها ويجب تحملهم فهم مرغمون على تلك التصرفات النابعة من الحب لها ولزوجها ..

أقبل بواب الفيلا ليخبرها بوصول تلغراف خاص بها قـادم من الخارج .. استلمت منه التلغراف لتفضه فى عجالـة فهـى تعلم أن "ماما وبابا" يرسلون لها بالتهنئة. قرأت سطورا حزينة ترسل بها "ماما" تنعى لها "بابا" مـسيو دوفـان .. انهمـرت الدموع من عينيها شديدة قوية وشعرت بأن العطف والحـب ولى عنها بوفاة هذا الرجل الذى كان أبا حانيا وعطوفا عليهـا وقدم لها كل شيء وإذا نسيت "ماما" شيئا ما يكون هو المذكر والمنبه لها بل إنه كثيرا ما يكون عائدا من خارج الفيلا حـاملا لها الحلوى وهى صغيرة وبعد أن نضجت يشترى لهـا بعـض

أغراضها ولم يكن يبخل عليها بأى شيء .. أمضت هذا اليوم فى الفيلا تعيد ذكرياتها معه .. أكثر من عشرين عاما وهى لا تنسى أنه فى العام الماضى أخبرها بأنه يوم زواجها سوف يقوم بالرقص "عشرة بلدى" وقد أضحكها هذا التعبير ولكنه كان مصمما وحاول الإمساك بالعصا وسعاد تدير له أغنية فريد الأطرش "زينة" من أجل أن يرقص عليها وضحكت منه زوجته طالبة منه أن يقدم أى شيء آخر ولكنه أكد لها أنه سوف يقوم بها وأنه علم من الناس فى المنصورة بأن بعض الآباء الذين يحبون بناتهم حبا شديدا ويوم زواجهن يفضلون أن يقدموا تلك الرقصة لهن مؤكدا لزوجته وسعاد بأن معناها "عشر رقصات فى وقت واحد" وهنا ضحكت ابنته سعاد من حديثه وتساءلت من أين أتى بهذا الكلام؟ .. ليست عشر رقصات ولكنها رقصة واحدة وهذا اسمها فقط .. ضحك قائلا لها مش مهم سعاد .. أنا أرقص عشرة بلدى عشرين بلدى مش مهم .. المهم إن حبيبة قلبى سعاد يكون مبسوط كتير .. مازالت تبكى وهى تتذكر أنه لم ينجبها وتعيد إلى ذاكرتها بأن هذا الرجل ليس جارا ولا قريبا ولا من نفس ديانتنا ورغم هذا فهو كائن حى يحمل قلبا مُحبا بريئا يسع آلاف البشر.

اتصلت سعاد بيحيى لتخبره بوفاة الأب الروحي لها وأنها ستسافر إلى باريس صباح باكر لتقف مع أمها جين .. حاول مرافقتها ولكنها أقنعته بأنه من غير اللائق أن تكون المقابلة الأولى مع أمها فى هذا التوقيت الحزين وسوف تقابلك فى

ظروف أحسن من هذا التوقيت .. أخبرت مسيو موليه أيضا والذى حزن على والدها كثيرا ..

*****

وصلت سعاد إلى فيلتهم بتولوز وقامت بطرق بابها وقامت جين بفتحه لتشاهد ابنتها سعاد أمامها فاحتضنتها باكية وسعاد تبادلها البكاء وهى الأخرى تحاول أن تقلل من حزن سعاد على أبيها .. ظلت سعاد مع أمها جين أسبوعا ثم قررت العودة إلى مصر بعد أن استطاعت إقناع جين بأن تكون فى صحبتها وهى دائما تشعر بحنين إلى العودة والحياة فى مصر والتى تذكرها بشبابها .. وصلت الأم جين وابنتها سعاد إلى فيلتهم واستقبلهم عم صالح البواب والمسئول عن الحديقة.

اليوم التالى ودعت سعاد أمها متجهة إلى عملها حيث فوجئت بانتهاء المبانى والإنشاءات الخاصة بعنبر التصنيع لكل من الفتيان والفتيات كما أن إنشاءات مباني الإعاشة لم يتبق على الانتهاء منها سوى شهرين .. تقابلت مع مسيو موليه ليخبرها : سعاد لقد اتصلت بشركتين أثناء فترة حزنك على والدك وسوف ترسل الشركتان بخبراء لها خلال هذا الأسبوع للبدء فى تنفيذ العمل الفعلي والشركتين هما "مولي نكس" لصناعة الأدوات الكهربائية وشركة "موفيك" لصناعة دراجات الركوب وسيكون نشاطهم هو التركيبات فقط .. أسعدها هذا وأخبرت مسيو موليه بأن حفل زواجها سيقام بعد أسبوعين.

أثناء تلك الفترة توطدت علاقة سعاد بالأطفال والصبية التى تم جمعهم من الأزقة والشوارع وأسفل الكباري ووصل عدد الصبية الى ما يقرب من مائة وخمسة وأربعين والفتيات إلى خمسة وستين .. شعر هؤلاء الصبية والفتيات بأن الله أرسل لهم بأخت كبيرة ترعاهم وتبحث عن مصالحهم وخلال الشهور الثلاثة الماضية استطاعت سعاد ومعاونوها العمل على تهذيب سلوكهم للأحسن حيث كان لرجال الدين الأثر الطيب عليهم كما كان لرجال علم الاجتماع والأمراض النفسية الأثر الفعال معهم فقد أشعروهم بأنهم بشر أسوياء وليسوا مجرمين أو مطرودين من المجتمع خاصة بعد أن تم الاتصال بأهلهم والذين حضروا لزيارتهم وأبدوا رغبتهم للعودة مرة أخرى والانضمام لأسرهم ورغم أن تلك العودة لم تتم ولكن هذا أعطاهم الراحة والسعادة البالغة بأن من طردهم أصبحوا راغبين بهم الآن ..

*****

مضى الأسبوعان وأقيم زفاف رائع على ضفاف نهر النيل وشعرت جين بأن حلمها قد قارب على التطبيق فهى التى كانت تمنى نفسها بهذه الليلة خاصة بعد اختطاف سعاد منذ ما يقرب من العشرين عاما .. سافر العروسان لقضاء بعض الوقت على ضفاف البحر الأبيض متخيرين مصيف رأس البر الهادىء. قضوا عشرة أيام ممتعة ولولا اتصال مسيو موليه بها طالبا منها العودة لوصول وفدى الشركتين الفرنسيتين والتى يجب ان تكون فى استقبالهم.

عقد مسيو موليه اجتماعا للوفد الفرنسى الذى يمثل شركتين من الشركات التى كلفتهما الحكومة الفرنسية بالمساهمة فى مشروع تأهيل وتشغيل الفتية والفتيات الذين وقع عليهم الاختيار ويخضعون منذ عدة أشهر لبرنامج تدريبي وتأهيلي فى مدرستين من مدارس محافظة الدقهلية .. وقد قطعوا شوطا كبيرا فى العلاج النفسى والاجتماعي كما أثمرت دروس الإرشاد الدينية التى أسهم بها كلٌ من الأزهر الشريف والكنيسة بنتيجة رائعة فقد شعروا بأنهم مواطنون عاديون ومن أبناء مصر ولا يجب عليهم الانعزال أو الانطواء وأن العلم والتعلم هو عامل حاسم ليصبحوا ضمن أفراد الشعب متبعين تعاليم الدين والأخلاق والعرف والقانون وكان لعودة الكثير من العائلات لزيارة أبنائهم وبناتهم الأثر النفسى عليهم حيث أشبعهم هذا كثيرا ولملم الكثير من الشروخ النفسية التى ألمت بهم بعد أن لفظتهم عائلاتهم.

أصبح البعض منهم مواظبا على العبادات والكثير منهم حفظ بعض من آيات الذكر الحكيم وهم مستعدون الآن لتلقى التعليم والتدريب المهني ليصبحوا منتجين وأصحاب مهن تدر عليهم بعائد يتقاضونه وينفقون منه على أنفسهم مثل باقى أبناء المجتمع.

كما كان للجمعيات النسائية بالمنصورة أثره على الفتيات اللائى تعرضن للاغتصاب وانتهاك حرماتهن فقد أعادت إليهن تلك الجمعيات الثقة بالنفس وأنهن مجنى عليهن ولسن جانيات

وهذه الجمعيات مكونة من عضوات وهن سيدات ذات مستويات اجتماعية راقية وكن يتقلدن مراكز سابقة فى الجامعات أو اجهزة الدولة.

عم الارتياح لدى الفتيات بأن ما تم لهن خارج عن إرادقمن وأنهن الآن فتيات صالحات وسيصبحن زوجات وأمهات وعليهن الانخراط فى المجتمع وأن ما حدث لهن هو درس عملي وفعال بألا يقتدين بمن سبقوهم من عائلاقمن فى التعامل مع المشاكل بإلقاء أبنائهن بعرض الطريق وأن يصبحن قدوة لأبنائهن وبناقمن ..

*****

الوفد الفرنسي مكون من شركتين .. الأولى "موفيك" لصناعة الدراجات والثانية شركة "مولي نكس" لصناعة المعدات الكهربائية كما أرسلت شركة "بيج" لصناعة الأقلام الجافة وأدوات الكتابة بخطاب باستعدادها للمساهمة فى هذا المشروع الانسانى .. درست الشركتان الأسلوب الأمثل للمساهمة فى هذا المشروع والذى يهدف للصالح الاجتماعي لهؤلاء المظلومين من عائلاقم كما يهدف إلى الربحية حتى يساعد على الإنفاق على نمو هذا المشروع الاجتماعي التربوي.

حدد لشركة "موفيك" أن يعمل بها الفتية حيث تصل منتجات الشركة إلى مصر عن طريق البحر ويقوم الفتية وبمساعدة الفنيين الفرنسيين بتلقي التدريب على كيفية تركيب

أجزاء تلك الدراجات حتى تصبح وحدة كاملة وستقوم الشركة بالإضافة إلى توفير الخامات والأجزاء بعملية التسويق التجاري فى مصر وشمال أفريقيا .. أما شركة" مولي نكس" فسيعمل لديها الفتيات حيث إن هذا العمل لا يحتاج إلى قوة عضلية مثل الأولى كما أنه دقيق ويتلاءم مع تكوينهن.

لم تتبق إلا أياما قليلة ويتم تسليم المباني سواء الخاصة بالإعاشة أو الإقامة أو مباني التركيبات وكل هذه المشاريع ستشرف عليها سعاد عوف ويعاونها بعض المتخصصين سواء من المصريين أو من الفرنسيين .. سعاد ومسيو موليه فى منتهى السعادة بأن الحلم قد اقترب وأصبح حقيقة خاصة بعد التطور الذى حدث فى سلوك وأخلاق هؤلاء المظلومين بل وصل هذا إلى المظهر العام للفتيات والفتيان وأصبح هناك فارق شاسع عما كانوا عليه منذ خمسة أشهر وبين حالتهم الآن .. فقد أصبحوا مُعدين إعدادا كاملا للإنتاج والعمل كما أن طريقة أحاديثهم السوقية والسيئة التى كانت منتشرة بينهم تلاشت وخاصة التدخين وممارسة الجنس بينهم.

تمت جميع التركيبات للشركتين وأصبح أصحاب التجربة خاضعين للتدريب العملي وهم غير مصدقين بأنهم سيعملون عملا شريفا مربحا .. مازال كلٌ من سعاد ومسيو موليه يوالون الاتصال بمنظمات حقوق الإنسان ورجال الأعمال المصريين لتكوين اتحاد يشمل هؤلاء المشردين بالشوارع لنحمى الوطن من خطرهم حتى لا يصبحوا بؤرة فساد وضرر كما حدث

ويحدث مع عزبة القرود .. "ماما " تتابع ما تقوم بـــه ســـعاد وتعاونها بتجميع عائلات الجالية الفرنسية خلفها لتـــشد مـــن أزرها وتقدم لها يد المساعدة اللازمة فى أى وقت تحتاجه.

*****

الحياة الاجتماعية للزوجين سعاد ويحيى تسير سيرها المعتـــاد وقد أسعد هذا والدا يحيى وهما ينظران إلى ابنهما وهو مـــسرور مع زوجته وقد تلاشى كل ضيق وخوف من عائلة سعاد الذين لم يتسببوا فى أى مضايقة لهما من بعيد أو قريب بـــل آثـــروا الابتعاد ينتظرون عطف ابنتهم عليهم بالزيارة والمودة وهـــى فى المقابل.لم تبخل على عائلتها وعلى ذويها بل وجيرانها بأى شيء تستطيع فيه تقديم يد العـــون لهـــم أو المـــساعدة الواجبـــة أو المفروضة.

*****

مضى عام على قيام المـــشروع وأقـــيم احتفـــال حـــضره المسئولون بالمحافظة كما تجمع عدد كبير من رجال الأعمـــال الخيريين والذين يبغون رضاء الله تعالى وأن يكون لهم فى الدنيا والآخرة نصيب من عمل الخير ومازالوا يواصـــلون لقـــاءاتهم ويبلورون الاتحاد المنشأ والغرض من إقامته والمساهمات المطلوبة من كل واحد منهم حسب قدراته .. وصل عـــدد الأعـــضاء المنتسبين من رجال وسيدات الأعمال لهذا الاتحاد حتى الآن إلى ما يقرب من مائتين وسبعين رجل وسيدة وانضم إليهم بعـــض

الأجانب الذين لهم استثمارات فى مصر ولتشجيع هذا العمل تقدمت وزارة المالية بالتعاون مع مجلس الشعب بقانون لفتح مجال المشاركة الأكبر والأعم أمام الكثيرين وتشجيعهم بتجنيب المساعدات المدفوعة من أرباح شركاقم وبالتالي لن تدفع عنها ضرائب وهذا سيصب فى صالح المشروع.

بمساعدة كل الأجهزة السابقة حددت أماكن لمثل تلك الحالات فى بعض محافظات الجمهورية خاصة فى القاهرة الكبرى والإسكندرية وبعض محافظات الصعيد وكان باديا للجميع الأثر الطيب الذى تركه قيام مثل هذا المشروع حيث انخفضت إلى درجة كبيرة نسب تواجد الأطفال المشردين والمنتشرين فى الأماكن الموبوءة .. بل كان بعضهم يتجه من تلقاء نفسه أو بمساعدة أصدقاء أو أقارب لهم إلى تلك المراكز عندما يشعر باضطهاد من ذويهم كما قامت أجهزة الإعلام بنشاطها المحمود للتوعية والتوجيه لمثل تلك الحالات لدرجة ان بعض المواطنين أصبحوا يساعدون هؤلاء الأطفال الضالين باصطحاهم إلى تلك المراكز .. كما سُن قانون يجرم على الأب أو الأم أو الاثنين معا طرد أبنائهم أو عدم العناية بهم حتى يضمن المجتمع عدم العبث بحياة واستقرار أطفالهم بل عدهم القانون مجرمين يهددون أمن الوطن اجتماعيا.

ودارت الأيام ومضى على قيام المشروع عشرة أعوام وأصبحت الأجيال الأولى مهنيين ممتازين وهم يعملون الآن وقد حصدوا الأرباح كنتاج عملهم وكان هذا ربحا ماديا كفل لهم

حياة معقولة وآمنة وتزوج الكثير منهم سواء من نفس الفئة أو من أقارب لهم فى قراهم ومدهم التى أقبلوا منها .. وتوسعت الشركات الفرنسية من مساهمتها فى هذا العمل الإنسانى والاستثماري فقدمت شركة "مولي نكس" للصناعة خلاطات المطابخ والأدوات الكهربائية من راديوهات ومكاوٍ كهربائية وحلل ضغط للبخار خطوط إنتاجية أكثر استوعبت عددا كبيرا من نفس تلك النوعية كما قامت شركة "ركسيل" للأدوات والكابلات الكهربائية بحذو نفس طريق من سبقوها وشركة "تيفال" وبعض الشركات الأخرى لدرجة ان تلك المراكز أصبحت تنافس مراكز التدريب المهني القديمة لأنها سلكت طريقين هامين.

الأول : التربوي التعليمي.

الثانى : الإنتاجى المربح.

أصبحت الأماكن التى كان يتجمع فيها مثل هؤلاء الضالين فارغة إلا من القليل الذى رفض التقيد بمثل تلك الأعمال ورغب فى أن يكون هائما على وجهه فى الشوارع والطرقات وكانت قوات الأمن تتصدى لهم بأن تحملهم قسرا إلى دور الرعاية النفسية للعلاج ..

*****

اقتربت سعاد من عامها الثامن والخمسين وأصبحت أما وجدة بعد أن تزوجت ابنتها "جين" وأنجبت كما أن ابنها

دوفان هو الآخر على وشك التخرج من الجامعة وقد لاقت أمها سنية ربها إثر عركة مع بعض نساء القرية وقذفتها إحدى الشابات بحجر اصطدم برأسها فماتت على الفور أما والدها عوف فقد سبقها بعدة أعوام و لم يتبق من عائلتها سوى أبناء إخوتها حيث توفيت جميع شقيقاتها وأخوها بسبب انتشار الأمراض كما توفيت أمها جين منذ عشرة أعوام لكن سعاد مازالت يانعة جميلة وقوية أما زوجها الدكتور يحيى فقد أصبح أستاذا للصحة النفسية بجامعة المنصورة .. ومازال مركز دوفان الاجتماعي للصناعات الخفيفة وهذا هو الاسم التى اختارته للمراكز الفرنسية التى أثبتت كفاءتها ومضى على إنشائها حوالى عشرين عاما منذ بداية عمله وقد أسبغ هذا على المجتمع المصرى كل الخير ولملم العديد من ضحايا الاضطهاد العائلى والتفكك الأسرى من الشوارع وحمتهم من أن يصبحوا مجرمين على قارعة الطريق أو ينشأوا عزبا مماثلة لعزبة القرود.

قامت سعاد بزيارة مقلب المنصورة التى خطفت إليه والتى نشأت به عصابة عزبة القرود وأسعدها ان تحول هذا المقلب إلى حديقة عامة يرتادها الأطفال وتعود بذاكرتها إلى الماضى منذ خمسين عاما وكان عمرها سبع سنوات وهى تنام فوق كرتونة أو بعض بقايا القمامة وتجمع لهم لواحظ زوجة المعلم حنفى أبو ركبة الخبز الموجود فى المقلب ليأكلوه وتكلف إحدى زوجتيه الأخرتين بإعداد حلة فاصوليا قرديحى.

عادت سعاد إلى فيلتها سعيدة وهى تُعيد شريط ذكرياتها خمسين عاما. تتذكر "ماما وبابا" وتقول الله يرحمهم .. مش

مصريين ولا مسلمين لكنهم بشر حقيقى اقرب إلى الملائكة ولولا ما قاموا به معى لما كنت أنا الآن الأستاذة سعاد أو الدكتورة سعاد الحاصلة على الدكتوراة من جامعة السربون فى مجال التنمية البشرية فى العالم الثالث وأصبحت أستاذا زائرا للعديد من الجامعات فى العالم وألقي بمحاضرات وأوظف من قبل السكرتير العام للأمم المتحدة كمستشار لليونسيف"وهى منظمة الأمومة والطفولة" بدرجة سفير وأحمل جواز سفر دبلوماسى وأتجول فى العالم أساعد وأقدم العون للمحتاجين .. إنهما لم ينجبانى ولكن بدون ما قاما به معى من مجهود ورعاية وإنفاق لأصبحت مثل صديقاتي جدة لعشرين من الأحفاد وأما لتسعة من البنين والبنات وأجلس فى قريتي وفى منزلي المتواضع أحمل أمراضا كثيرة منتظرة لقاء ربى وكل ما قدمته للبشرية والوطن هو زيادة أعداد المصرين غير المؤثرين فى المجتمع بل إنهم مستهلكين بدون عائد .. إنهم المصريون الذين إذا وجدوا العناية والاهتمام لصالوا وجالوا فى بلادهم وخارجها ونحن نسمع عن علماء مصريين أفذاذ ملأوا الدنيا بما يقومون به من أعمال مجيدة تفيد البشرية كلها.

لابد أن أحذو حذو "ماما وبابا" وأن أقدم منحا دراسية لكل نابه فى قريتى وأن أكرس جزءا كبيرا من وقتى فى الفترة القادمة لهم فإذا كان كلٌ من "ماما وبابا" قد اهتموا بى فإنه يجب على أن أضاعف العدد ولأبدأ بالعشرة الأوائل فى محافظة المنصورة وأقدم لهم منحا دراسية فى مجالات عدة لتتعاظم المنفعة

وليصبحوا قدوة وليقتدوا بالسابقين مثلما أنا أريد أن اقتدى بهم أيضا.

عاد يحى من الجامعة وبعد أن تناولا طعامهما أخبرته بما قررته وقد أسعده هذا قائلا إن هذه هى الصدقة الجارية التى ستفيدك فى الآخرة وسيضاف هذا إلى علمك الذى أفدت به البشرية وإلى أبنائك الذين سوف يدعون لك .. بارك الله لك فى خطواتك وسأنضم إليك ولنصبح مثل "ماما وبابا" حينما اندفع الاثنان لرعايتك وليكون هذا نبراسا لكل إنسان قادر على العطاء ولقد كان الصحابة الأجلاء يقومون بتعليم من لا يعرف القراءة والكتابة فنحن أمة العلم والتعلم وليست الكسل والجهل.

مضت خمسة أعوام والجيل الأول الذى تبنته سعاد وزوجها تخرج من جامعة المنصورة بتفوق ووظفوا جميعا معيدين بكلياتهم لتفوقهم وهكذا ستبنى أول لبنة فى صرح العلماء المصريين المجدين على يد تلك الفتاة البسيطة ابنة الريف والتى تبنتها إنسان وليكن لها أى اسم وأى دين ولكنها وزوجها راعوا الله فيها و لم يبخلوا عليها بالعمر والصحة والمال وكل إنسان يُقيم بما قدمه للفرد والمجتمع ورحم الله الجميع ووفقها للسير على هذا النهج العظيم.

شعرت سعاد بأنها متوعكة الصحة والمزاج وخاصة أن الفيلا أصبحت فارغة لزواج الأبناء والبنات كما أن زوجها فى بعثة علمية بالخارج لمدة أسبوع .. شعرت بالوحدة وتذكرت أمها

"جين" حينما كانت تشعر بتلك الوحدة مما اضطرها إلى طلب طفلة تسليها وتقطع عنها هذا السكون فشاء الله أن تكون هى سعاد عوف .. تنهدت ونظرت إلى الشارع الهادىء الخالى من المارة صباح يوم الجمعة وشعرت بأن النعاس يغالبها ولكنها تنبهت على صوت لم ولن تنساه .. صوت شاب ينادى "الخس اللوز" .. اضطربت وازداد عدد ضربات قلبها وتورد وجهها بالسعادة وتذكرت الأيام الماضية وهى طفلة صغيرة .. وقفت تشاهد البائع .. إنه شاب قروى يشبه أباها فى الهيئة والطيبة حتى إنها اعتقدت بأنها عادت بعمرها خمسين عاما .. طلبت من حارس الفيلا إحضاره .. حضر الشاب باشا فى وجهها تكلمه ويجيبها بكل ثقة وكان باديا عليه الصحة وحُسن الهندام.. سألته عن اسمه وأجابها .. اسمى "عرفة" ابتسمت قائلة.. عوف إنه اسم جميل .. ضحك الفتى ليعيد ذكر اسمه .. عرفه يا ست هانم .. ابتسمت له وأخرجت مبلغا من المال لتعطيه له. اندهش متسائلا: لماذا هذا المبلغ ؟ أنا والحمد لله أعمل وأرتزق ولا أحتاج صدقة أو مساعدة .. سيدتى إننى أعمل هنا ولقد عاصرت رجلا طيبا وأنا طفل صغير كان يبيع الخس فى هذا الحى وينادى على بضاعته مثلما أنا أنادى .. أنا أقتدى بهذا الرجل والذى يتذكره كل أبناء جيلى .. هيه .. الله يرحمك يا عم عوف .. قفزت بعض قطرات من عينها وشكرته فغادر الفيلا عائدا إلى عربته وإلى حماره .. اتجهت إلى الحمام وتوضأت وصلت ركعتين شكرا لله وترحمت على والديها "عوف وسنية" وجين ودوفان .. وسمعت النداء من على بعد "الخس اللوز".

